التصوف عند الدكتور عبد الحليم محمود

" الإطار النظرى والتجربة العملية "

إعـــــداد

الدكتور / محمد صلاح عبده محمد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالزقازيق

أستاذى الدكتور منيع عبد الحليم محمود

حزمة ضوءٍ من أنوار الوالد / الإمام الأكبر

رضى الله عنه ، ونفعنا به.

محمد صلاح عبده

مقدمة

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــــد ،،،

فإن صلتى بالإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود رضـــى الله عنه ترجع إلى مرحلة الدراسة الجامعية عندما تقدمت بدراسة تحليليـــة حول كتابه " أوروبا والإسلام " إلى وزارة الشباب ، وقـــد فـــاز هـــذا البحث بالمركز الأول على مستوى جامعة الأزهر، وكانت جائزته أداء مناسك العمرة، وفرضت هذه المناسبة نفسها عنوانا علـــى اهتمامـــاتي الدراسية، فقد هيمنت الروح الصوفية للإمام الأكبر علـــى تطلعـــاتي، وخصوصا وقد جعل – رضوان الله عليه – من التصوف الحق منهج حياة للأمة الإسلامية لا ينفك عن الإسلام، ولا يبتعد عنه قيد شبر، ولا يصدر عن سواه، ولا يغترف من نبع غير كتاب الله وســـنة نبيـــه – صلى الله عليه وسلم – ولا يتأسى بغير سنته، ولا يتغيا إلا رضوان الله تعالى، وصلاح الحال للفرد والمجتمع.

ورغم أنني لم أحظ بشرف التلقى المباشر عن الإمام الأكبـــر إلا أنني لم أحرم من خيره ونوره وبركته فبالإضافة إلى ملازمتي علـــى مؤلفاته المباركة كان لى حظ طيب بـــالتلقي المباشـــر عـــن تلاميـــذه المخلصين وشيوخى المباركين: الدكتور محمد أحمد مصطفى، الدكتور ضياء الدين الكردى، الدكتور فوقى حجاج، الدكتور على معبد فرغلى، صهرى الشيخ أحمد التجانى على حسن، والدكتور عبد الفتاح بركة.

ومن خلال حبى له ومتابعتى للدراسة ومناهجها فى قسم العقيـــدة والفلسفة بكلية أصول الدين/ القاهرة لاحظت أن الدراسات الصوفية فى طريقها إلى الانقراض من خلال عزوف الزملاء عنها، والأشد إيلاما للنفس رحيل نخبة من خيار الأساتذة إلى جوار ربهم، وهم: الـــدكتور محمد مصطفى، الدكتور ضياء الكردي، الدكتور فوقى حجاج، ولم يبق من المهتمين بالتصوف إلا الدكتور على معبد فرغلى بـــارك الله فـــى عمره، والدكتور سامى حجازي، ومن جيل الشباب الـــدكتور محمـــود حسين .

ومن ناحية أخرى رأيت أن للإمام الأكبر دينًا مستحقاً فى أعنـــاق تلاميذه ومحبيه لم يتم الوفاء به حتى الآن..

ومن هنا نشأت لديّ رغبة ملحة فـي القيـام بتجليـة موضـوع "التصوف الإسلامي " عنده وهو الذى أخذ جلّ اهتماماته المباركة إلى أن يسر الله تعالى هذه الفرصة لكتابة هذا البحث الموجز وفـاء بحـق الشيخ وتذكيرا بمنهجه، واستمرارا لخطه، و إحياءً لذكراه راجيا مـن الله العون والقبول، وقد جاءت خطة الدراسة فى هذا البحث على النحو التالي :

تمهيـــد

المبحث الأول: القراءة : السبيل الكسبى للعلم.

المبحث الثانى: الكتابة : عطاء الإمام للمكتبة الصوفية.

المبحث الثالث: تصوف الإمام بين المنهج والتطبيق.

أولاً: المنهـــــــج.

١- المنهج شـــكلاً: أدوات الصياغة.

٢- المنهج موضوعاً: الميـــــراث الصوفى.

أ- فى مجال التحقيق.

ب- فى مجال الترجمة.

ثانياً: التطبيق : التجربة العملية

خاتمـــــة:

تمهيـــد

ولد الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود فى " عزبة أبى أحمد " التابعة لمركز بلبيس/ محافظة الشرقية، وأبو أحمد هذا جدِ والدِ الإمـام الذى كان قد بنى هذه العزبة: بيتا بيتا وأصلح أرضها: فدانا فدانا، وتسمى الآن قرية السلام، وتبعد عن بلبيس بمقدار أربعة كيلو مترات، وتبعد عن القاهرة بمقدار خمسة وأربعين كيلو مترا تقريبا.(١)

هذا عن مكان ولادته أما زمان ولادته فهو شهر مـايو ١٩١٠(٢)، ووالده الشيخ محمود على كان يقضى حوائج الناس، ويعينهم على نوائـب دهرهم، ولهذه الأريحية النبيلة والشهرة المشهودة فى إغاثـة الملهـوف و إقامة العدل والإحسان، فقد اختارته الحكومة قاضيا فى المحاكم التى كانت تؤلفها فى ذلك الزمن من وجهاء الناس، وكبار القوم و أصـحاب الـرأي والمشورة لفض المنازعات وحل الخصومات بين أهالي البلاد.

فوالده: حسينى، أزهري، ومصلح، وقاضى، وصاحب مشـورة، ومحل ثقة وتقدير وحب من أهل دائرته.(٣)

أما عن أمه فهى حسينية من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسـلم يقول الإمام الأكبر عنها: " وقد وهبت حياتها فى سماحة لوالدى ولأبنائها، ولم تأل جهداً فى توفير الراحة لهم، وكانـت كريمـة بالنسـبة للفقـراء والمساكين تعطف عليهم، وتبرهم، وترسل إليهم من الطعام والكسوة، وما تثمر الأرض من خضراوات وبقول وفاكهة.(٤)

فالأسرة نسباً أسرة شريفة، والأسرة اجتماعيا أسرة عريقـة فـى الكرم والقضاء، والأسرة ماليا من أعيان الريف الذين لهم يد طـولى فـى الكرم والعطاء، واستقبال حاجات الناس بالسماحة والتيسير.

فى هذه الأسرة ومنها ولد الإمام الأكبر رضى الله عنـه، وكـان مولده مثار لهفة على الإنجاب أو على حد تعبيره: جئت إلى الحياة علـى لهفة إلى الولد " الذكر" فقد سبقنى أختان وأخ – استأثر الله به فى طفولتـه المبكرة! – لقد كانت ولادته مصحوبة بلهفة، وكانت مصحوبة كذلك بالأمل والرجاء كأنما البيئة قد هيئت للترحاب به من عمـق القلـوب وأطـراف المشاعر وأغوار الأحاسيس.(٥)

---

(١) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى ص ٣٦،٣٧

(٢) د. رؤوف شلبى: شيخ الإسلام: عبد الحليم محمود ص ٢٧

(٣) السابق : ص ٢٦

(٤) د. عبد الحليم محمود: الحمد لله هذه حياتي ص ٣١

(٥) د. رؤوف شلبى شيخ الإسلام: عبد الحليم محمودص٢٦،٢٧

أما عن صفاته وسماته وقسماته فإننا نتركه – رضى الله عنه – يذكرها بنفسه، فيقول: " لقد ولدت فى صحة لا بأس بها، أما من الناحية الجسـيمة فإن الله سبحانه وتعالى قد عافاني من التشويه فى الجسـم جملـة، وفـى الجوارح كذلك : العينان سليمتان وسمع الأذنين عادى.

وهكذا لا شذوذ – إفراطا ولا تفريطا – وعافانى – وله الحمد – مـن السمنة، ومن النحافة، وجعلنى وسطا بينهما – وله الحمد – وعافانى مـن الطول والقصر، وجعلنى وسطا – وله الحمد – وعافـانى مـن البيـاض الأشقر، ومن السمرة الداكنة – وله الحمد– ولم أصب فى هـذه السـنوات الطويلة التى مرت بى بمرض خطير ولله الحمد والمنة والفضل.

وإذا جئت – الآن– إلى الذكاء والعقل والاتزان فإني أحسب أنني – فى كل ذلك– وسط.(١)

عاش الإمام الأكبر –رضى الله عنه– طفولته المباركة فى قريته حيث نتعرف على التحاقه بالكتاب الذى انتهت مرحلته بحفظ القرآن الكريم، ومنه – بعد فترة– التحق بالأزهر الشريف عندما أصبح فى السن التـى تؤهلـه لذلك، وبدأ دراساته الأزهرية بالمسجد الذى يقول عنه:" وكان المسجد طيلة القرون الماضية منذ بدأ الإسلام إلى عهد قريب يرتبط بالمعهد أى يـرتبط بالعلم برباط وثيق.

وكان المعهد "العلم" شديد الارتباط بالمسجد، لقد فقدنا – نحـن الآن– فكرة "المسجد المعهد" أو "المعهد المسجد" ويجب أن نحييها من جديد ونعود إليها.

إنه فرق هائل أن تدرس تفسير القـرآن الكـريم، والحـديث النبـوى الشريف، والفقه فى المسجد، وأن تدرس ذلك فى غرفة فى مبنى لا يشـع منه ما يشع فى المسجد من نور الإيمان ، وجلال المكان ، وعبير العبادة.

إن حياة المسجد بالمعهد، وحياة المعهد بالمسـجد وينبغـى أن يعـود الارتباط بينهما وثيقا كما كان .(٢)

إلا أن الأمر بالنسبة لسنىّ دراسته الأولى لم يبق على هذا الحال، فلقد انتقل من المسجد الذى ألف الدراسة فيه إلى حد العشق إلى غرفة فى مبنى ليس له قداسة المسجد ولا روحانيته فى معهد الزقازيق.(٣)

---

(١) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى : ص ٢٣،٢٤

(٢) السابق : ص ٧٥

(٣) السابق : ص ٨٠

ويحسن بنا منهجياً أن نمر سراعاً بصفحات حياته من خلال حديثه عنها؛ ليتناسب هذا المرور بطبيعة هذا التمهيد بل بالبحث ذاته، ومن هنا فإننا نتعرف على حصوله على شهادة الثانوية الأزهرية، والتحاقه بصفوف الدراسة بالجامع الأزهر الشريف ليتلقى العلم على نخبة من كبار العلماء يذكر لنا منهم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، والشيخ حامد محيسن، والشيخ سليمان نوّار، والدكتور محمد عبد الله دراز، والدكتور محمد عبد اللطيف دراز ، والشيخ الزنكلونى ، والإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق.

ولم يكن طالباً تقليدياً مكتفياً بما تتيحه له الدراسة فى جو الجامع الأزهر بل قام بتوسعة مصادر ثقافته من خلال الاتصال بالجمعيات الأهلية فى زمنه مثل: الشبان المسلمين ، والهداية الإسلامية.

وبقى فى القاهرة إلى أن حصل على شهادة العالمية وبدأ يفكر فى الانفتاح على العالم الخارجى فأعد العدة وسافر إلى فرنسا والتحق بجامعة السوربون وأخذ يدرس فى مرحلة الليسانس، حيث درس عدة مقررات، ويحسن بنا أن نستمع إليه وهو يقص علينا خبر تلك المرحلة، وفى ذلك يقول: " دخلت الجامعة، وبدأت الدراسة فى " علم الاجتماع" ، "وعلم النفس"، ومادة " الأخلاق"، و" تاريخ الأديان" ، وكانت هذه المواد يتزعم دراستها وتدريسها الأساتذة اليهود الذين تتلمذوا على الأساتذة اليهود!

وكانت هذه المواد كلها تسير فى تيار محدد، هو: أنها " علوم مجتمع " أى أنها لا تتقيد بوحى السماء، ولا تتقيد بالدين على أنه وضع إلهى ...

إن للدين – فيما يزعمون– نشأة إنسانية اجتماعية، وإن للخلق – فيما يرون– نشأة إنسانية اجتماعية، ودراسة الدين والأخلاق إذن تتجه إلى النشأة والمظاهر وعوامل التطور، وظواهر التطور... وليس للسماء فى الدراسة من نصيب.

وكل الظواهر والمظاهر فى هذه الدراسات اعتبارية نسبية متغيرة متبدلة لا تثبت على حال!

ولكننى كنت أتشبث بيقين لا شك فيه، كنت أقول فى نفسى: إذا كانت الأخلاق نسبية فهل يأتى الزمن الذى نعتقد فيه أن الصدق رذيلة، أو أن الشهامة شر، أو أن الشجاعة سوء، أو أن العفة جريمة؟!.. ثم أعود إلى نفسى فأقول : كلا، وأتساءل من جديد فى مجال العقائد: هل يأتى اليوم

الذى لا نقول فيه بوحدانية الله، أو لا نقول فيه بإرادته وعلمه ؟!.. وأعود إلي نفسى وأقول : كلا!"(١)

بدا لنا الآن بوضوح أن الإمام فى دراسته فى مرحلة الليسانس لم يتأثر بمناهج الدراسة الغربية، ولا بالرؤية المادية لمحتوى المقررات النظرية بل وقفت عقيدته الراسخة، ونشأته الأولى حائلاً قوياً دون نفاذ هذه الأباطيل إلى فطرته السوية، أو إلى صدره النقي ، وقلبه السليم.

انتهى الإمام من الليسانس وبدأ يعد العدة ويتأهب لدراسة الدكتوراه، وهنا وجد نفسه فى مفترق طرق، وتقدم بموضوعين فى " فن الجمال" و " مناهج البحث" وتم رفضهما.

وهنا أدركته عناية ربه تبارك وتعالى فجمعت شمله، وحددت هدفه ووحدته، ووجد نفسه فى جو الدراسات الصوفية، فقد هيأ له القدر الأعلى اللقاء بالأستاذ " ماسينيون " وتم الاتفاق بينهما على دراسة التصوف الإسلامي من خلال شخصية " الحارث بن أسد المحاسبى " ، وهنا وجد الإمام نفسه فى قلب الميدان الصوفى، وفيما يبدو لى فإن العناية الإلهية قد تولت اختيار هذا الميدان له ؛ ليكون فارسه المغوار، ليجلىّ للمسلمين الوجه الأنور للتصوف الإسلامي الحق، وينفض التراب عن تراثه العريق وعن تاريخ رجاله المخلصين، ومن ناحية أخرى ليقوم بالتنبيه على مرجعيته المتمثلة فى الصدور الواضح عن الرؤية الإسلامية الشاملة للإنسان والكون من خلال انبثاقها عن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكيف تحولت هذه الرؤية – من خلال الصوفية المسلمين– إلى واقع حىّ يجسد تعاليم الإسلام على مدار العصور، حيث يقدم ذلك كله من خلال خطبه ومؤلفاته باتخاذ منهج وسطى متميز .

انتهى الإمام من تقديم رسالته للدكتوراه حيث نوقشت وحصل على درجتها بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى ثم عاد إلى وطنه..

ظل الشيخ يمارس عطاءه الطيب فى كل مكان يعمل فيه داخل مصر وخارجها، فى كلية اللغة العربية، وكلية أصول الدين، ومجمع البحوث الإسلامية، ووزارة الأوقاف،ومشيخة الأزهر؛ ليصل فى النهاية إلى منصب " الإمام الأكبر شيخ الإسلام" ، و" لم يسع يوما لمنصب، و إنما كانت المناصب هى التى تسعى إليه، فقد رقىّ أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية ثم وزيرا للأوقاف ليحمل لواء الدعوة الإسلامية ويبدأ ملحمة إعداد الداعية ومنهجه فى إرسال أشعة الإيمان إلى القلوب لتطهرها وتجلوها وتفتح أمامها طريق التقدم لتعمير الكون، والارتقاء بالحياة، لكنّ

(٩)السابق:ص١٧٢-١٧٦(بتلخيص)انظر : د. عبد الحليم محمود : الفلسفة : رسالة منشورة فى مجلة البحوث الإسلامية– الرياض ١٤٠٠هـ

الله أعد عبده الصالح لا ليقود مرفأً واحداً من مرافئ الدعوة وإنما ليقود الدعوة الإسلامية كلها بتوليه مشيخة الأزهر سنة ١٩٧٣م"[١]

" وقد كانت للشيخ رؤية ناضجة للأزهر وقرت فى قلبه وآمن بها، وعمل على تنفيذها، فهو يؤمن أن الأزهر ليس هيئة مصرية، وإنما هو هيئة إسلامية؛ لذا يتحتم على المسلمين جميعا أن يتعاونوا ويتكاتفوا لتمكينه من أداء رسالته ، ورسالته فى جوهرها الدعوة إلى الله تعالى.

ومن هذه الرؤية بدأ فى إصلاح وإكمال احتياجات الأزهر و دعا إلى جملة تبرعات إسلامية للنهوض بالأزهر، وتوسع فى إنشاء الكليات والمعاهد الأزهرية ، وكان من أجل ما صنعه فى خدمة كلام الله تعالى هو إنشاء إدارة خاصة بالقرآن الكريم تتولى شئونه محلياً وعالمياً، وتدعو كل المسلمين فى بقاع المعمورة أن يقبلوا على حفظه وفهمه والعمل به ..."[٢]

ظل الإمام مخلصاً فى عمله وعطائه وجهاده إلى أن وافته المنية فرحل إلى ربه راضياً مرضياً صباح يوم الثلاثاء ١٧ أكتوبر ١٩٧٨ الساعة السابعة والنصف صباحاً.[٣]

وبعد هذا التجوال المركز فى حياة الإمام الأكبر رضى الله عنه نستخلص ما يسترعى الأنظار للوهلة الأولى وهو اختياره ميدان الدراسات الصوفية رغم موسوعية ثقافته، وقد ترك للمكتبة الإسلامية ما يقترب من سبعين كتابا فى عدة مجالات، إلا أن الاتجاه الغالب فى دائرة اهتمامه كان التصوف الإسلامي: ترجمة لشيوخه، وتحقيقا لتراثه.

بيد أن الإمام الأكبر – رضى الله عنه – لم ينشغل بذاته أو يحتفل بشخصه إلا من خلال كتابه الموجز: " الحمد لله هذه حياتى " وقارئ هذا الكتاب لا يملك إلا الاستغراب لأن الشيخ أشار فيه إشارات عابرة إلى حياته ثم جعل جل اهتمامه ينصب على الموضوعات التى تعرض لها مثل: جو الحمد لله، مناهج الدراسة فى جامعة السوربون، المحاسبى: تصوفه ومنهجه، خلاصة تجربة الإمام ... وغيرها.

نعود فنقول: لم يترك لنا الشيخ مؤلفاً مستقلاً عن تصوفه الشخصى: نظريا وعمليا، وإن كان قد ضمن مؤلفاته خلاصات متناثرة من تجربته الصوفية ، ومن حسن الحظ، ويمن الطالع أن أقوم باستخلاص مذهبه وتجربته الصوفية من خلال هذا البحث.

---

(١) أحمد زيادة: الإمام عبد الحليم محمود : آخر العلماء الأولياء ص ٢٠،٢١

(٢) السابق : ص ٢١،٢٢

(٣) دكتور رؤوف شلبى: شيخ الإسلام عبد الحليم محمود ص ٦١٦

المبحث الأول

القراءة : السبيل الكسبى للعلم.

تجدر الإشارة فى بداية هذا البحث إلى تحديد الغاية من القراءة والتى تتمثل فى كونها سبيلا كسبيا للعلم؛ للدلالة على وجود سبل أخرى لا تعتمد على القراءة، وقد جاء هذا التحديد اعتمادا على التفرقة بين نوعى العلم : الكسبى والوهبى.

والإمام الأكبر – رضى الله عنه– كان واضحاً فى مؤلفاته التى تناول فيها هذه القضية فى أكثر من سياق بصيغ متعددة، ومن ذلك قوله:" إن العلم سبيله الكتاب والقراءة والدرس، ولكن ليس هذا وحده سبيل العلم، وذلك أن العلوم منها: كسبى: سبيله المدرسة والجامعة التى تخرج طبيبا ومهندسا وغيرهما، ومنها : وهبى: سبيله العبادة والتقوى، وهو علم القلوب والأخلاق والمعرفة بالله، ولقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم– يقول: " رب زدنى علما ".

ولم يكن – صلوات الله وسلامه عليه– يعنى علم الكتاب والدرس، وإنما كان يعنى العلم الوهبى.

وهذا النوع من العلم الوهبى لا يتعارض مع العلم الكسبى، ولا يقلل من شأنه، بل إن بينهما صلة وثيقة.[١]

لكن الصوفية امتازوا عن غيرهم بعدم الاكتفاء بالعلم الكسبى وحده، بل زادوا عليهم بالعلم الوهبى ، وفى ذلك يقول الشيخ " والصوفية فى الجانب العلمى لا يكتفون بالجانب الكسبى أى: جانب التعلم من الكتب، وعلى أساتذة الكتب، ولكنهم قرأوا فى كتاب الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ، فتعلقت آمالهم بهذا العلم الآتي مباشرة من الله وتطلعت أمانيهم بهذا العلم اللدنى الذى هو من عند الله".[٢]

ولسنا الآن بصدد تفصيل القول فى قضية العلم عند الصوفية لأننا فى معرض البحث فى موضوع القراءة ضمن الإطار النظرى فى التصوف الإسلامي عند الشيخ الإمام.

فإذا عدنا إلى موضوع القراءة عنده وجدنا لها حضوراً منذ طفولته الباكرة التى قضاها فى بيئته الأولى، وفى ذلك يقول:" ... وكنت أقضي الصيف بأكمله تحت شجرة ضخمة من أشجار الليمون، كنت دائما فى

---

(١) د. عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوى ص١٢٣،١٢٤.

(٢) د. عبد الحليم محمود : بشر بن الحارث الحافى ص٣٢، ٣٣.

شبه خلوة ... كنت أحمل الكتب فى أوائل الصيف ، وأحمل " الفرش" المناسب ، وأترك الكتب والفرش فى المساء لأعود إليها فى الصباح أقضي الساعات في قراءة منوّعة، تشرق على الشمس وأنا فى الحديقة، وتغرب الشمس وأنا في الحديقة، ولم يفصلنى عن هذه العادة فى الصيف إلا سفرى إلى فرنسا." (١)

فمنذ أن تفتحت مدارك الإمام وبدأ وعيه يمارس فعل القراءة، فماذا يقرأ؟، وكيف توحد اتجاهه ووجد بغيته فى التصوف الإسلامي؟ ، أو بعبارة أخرى: ماهى الرحلة التى قام بها عبر الكتب حتى اختار الدراسات الصوفية ميدانا رئيسا يحظى بجل اهتماماته وغالب أولوياته؟ .

للإجابة عن هذه التساؤلات نتذكر ما سبق لنا إيراده فى التمهيد لهذا البحث وهو قيام الشيخ بحفظ القرآن الكريم فى طفولته، إذنْ كان كتاب الله تعالى أول ما صافح عيني الإمام في قراءاته، ثم انطلق الى الدراسة الأزهرية منذ سنواتها الأولى إلى أن حصل على شهادة العالمية، فهو إذن قرأ مناهج و مقررات التعليم الأزهري حتى العالمية.

وإن كانت هذه القراءات إجبارية فإننا نستلفت الأنظار إلى أن الشيخ لم يكتف بها بدليل قيامه بالاطلاع على ما أنتجه محمد فريد وجدى، وجورجى زيدان، والشيخ محمد الخضر حسين، ولم يكتف بالاطلاع فقط بل كان يغشى المجالس التي تعقد فيها الندوات وتلقى فيها المحاضرات للإلمام بعلوم عصره بطريقة اختيارية.(٢)

بالإضافة إلى المرحلة السابقة لبحوثه فى رسالته للدكتوراه، وهى مرحلة الليسانس فقد اطلع فيها وتعرف على العلوم النظرية من وجهة نظر غربية، وقد توقف مليا أمام مناهج الدراسة فى ميدان تخصصه فى جامعة السوربون حيث لم يكن طالبا نمطيا يستظهر ما يتلقاه على أيدي أساتذته ثم يؤدى الامتحان فيه بهدف اجتيازه، وهو منتهى أمل كل طالب، بل كان محصنا بعقيدة راسخة وملكة حاضرة وموهبة نقدية فذة مما أهله لعرض ما قام بدراسته على مقررات دينه الحنيف " الإسلام " وقد استخلص النتائج والعبر التى عبر من خلالها إلى رحابة الدراسات الإسلامية المعتمدة على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وهى وثيقة الصلة بوحى السماء فى مقابل انقطاع مقررات الدراسة فى تلك المرحلة عن ذلك الوحى، ومما يلاحظ أيضا أن شيخنا - رضى الله عنه- لم يتعرض لأزمة الحيرة، أو التمزق الثقافى، أو التشتت الروحى الذى كان يمكن أن يصيبه من جراء هذا التناقض الصارخ بين خلفيته الثقافية

(١) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى ص ٣٧.

(٢) السابق : ص ١٠٩ - ١١٢

وموروثه الأصيل ومعتقده السليم وبين مقررات نبتت من الأرض لمخاطبة النواحى الحسية فى الإنسان المادية فى الكون والحياة .

تعرف الإمام في مرحلة الليسانس على " علم الاجتماع " ، و " علم النفس " ، ومادة " الأخلاق " ، و " تاريخ الأديان " ، ولنقرأ ما كتبه الإمام عن هذه المرحلة : " وكانت هذه المواد كلها تسير فى تيار محدد،هو: أنها " علوم مجتمع " أى أنها لا تتقيد بوحى السماء، ولا تتقيد بالدين على أنه وضع إلهى ، فهى تدرس فى موضوعاتها على أنها ظواهر اجتماعية ، وظواهر إنسانية .

وبدأنا فى الدراسة نسمع مختلف الآراء في نشأة الدين، ومختلف الآراء فى تفسير النبوة، وينتهى الأمر برأى الأستاذ فى الموضوع.

وليس فى هذه الآراء على اختلافها وتعددها ما يتجه إلى أن الدين وحى من السماء، أو أن النبي موصول الأسباب بالسماء ، وإذا انتظرنا من الأستاذ أن يصحح الوضع فيدلى فى النهاية برأيه مثبتا الألوهية والنبوة هادما للآراء الأخرى واصفا لها بأنها : ضلال! إذا انتظرنا ذلك منه فإننا نكون واهمين؛ فإنه واحد من هؤلاء العشرات من الأساتذة فى هذه المواد وما شابهها المنغمسين فى تيار المادية.(١)

ثم يتحدث فى أسى عن نتيجة هذه الدراسة على غيره من الطلاب:

"... والشاب الذى انتقل من الأقسام الثانوية إلى الجامعة يتأثر بأستاذه، فإذا كان الأساتذة متكاتفين على هدم القيم الثابتة ، والمثل العليا التى يقررها الدين، وتقررها الأخلاق.

فإن الطالب الذى يعيش في أجواء تتعاون كلها على هدم عقائده ومثله وقيمه ينتهي به الأمر - فى الأغلب الأعم من الحالات- بأن تنهار هذه القيم فى شعوره.

ومن هنا كانت الظاهرة التى تجدها فى طلبة الجامعات فى أوروبا من الاستخفاف بكثير من العقائد، وبكثير من القيم، وينتهى الطالب بالإلحاد، أو على أقل تقدير بالإيمان الكامن الذى لا فاعلية له ، ولا تأثير فى سلوك الإنسان."(٢)

واللافت للنظر فى هذا الخصوص أن الله تبارك وتعالى عصم الشيخ مما سقط فيه سواه من الطلاب، بل إنني أرى أن هذا الاحتكاك المباشر بهذا اللون من الثقافات المتعددة ضاعف من رسوخ عقيدته، وأكسبه مناعة حصنته ضد اختراق هذه الأفكار وتسللها لعقله وتسربها لوجدانه، وكان

(١) السابق : ص ١٧٢،١٧٣.

(٢) نفسه : ص ١٧٤

لذلك أثره فى تأسيس منهجه الاتباعى ، ومن ثم جهاده ضد كل فكر دخيل وتجلى ذلك بوضوح فى تصديه للمد الشيوعي الخبيث وجهاده ضد الغزو الفكرى بكل أنواعه بعد عودته إلى مصر.

ومهما يكن من أمر فإنني أستشعر الحاجة الى التقاط عدة محطات فى رحلته الثقافية الإسلامية من خلال القراءة، وأحب أن أنبه الى اختيار الله تعالى موضوع رسالته للدكتوراه فى التصوف الإسلامي عن الحارث المحاسبى، وهذه الرسالة هى المحطة الأولى التى وضع من خلالها أسس مشروعه الثقافي، فقد عاش بوعيه وإدراكه جو الشخصية والبيئة التى أحاطت بها ونجح فى استخلاص منهج الإمام المحاسبى الذى كانت نقطة انطلاقه الاتباع بكل ما يمثله هذا المنهج من أبعاد.

بل إنه منذ اللحظات الأولى للتعامل مع شخصية المحاسبى استطاع بذكاء التعرف على قوتين رئيستين تهيمنان على الساحة الإسلامية وهما: أهل السنة والمعتزلة، وبالتالي استطاع التفرقة بين منهجيهما فى تناول المسائل الجوهرية والفرعية فى الدين والعلوم الناشئة على ضوء الرؤية الإسلامية للإنسان والكون والحياة، أو على حد تعبيره:

"إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين"

إنه النزاع الأبدي بين الذين يقولون: إن الدين نص تفسره أسباب النزول واللغة والرواية، والذين يقولون: إن الدين نص يفسره العقل ويوضحه.

ويظن بعض الناس - للوهلة الأولى- أنه لايمكن أن يكون هناك طرف ثالث فى هذه الخصومة.

فالإنسان إما نصى ، وإما عقلى، ولا يحتمل الأمر حلا ثالثاً. ونشأ المحاسبى ليعلن هذا الحل الثالث .(١)

ودخل المحاسبى المعركة وسلاحه فيها: عبودية حقة، وإخلاص لا حد له ، وتقوى تغمر كل الجوارح، ومن قبل ذلك ومن بعده: دراسة مستفيضة للدين: وسائله وغاياته، جزئياته وكلياته.

كان المحاسبى ينهج فى درسه نهجا آخر غير الطريق العادي التقليدي:

كان يتحدث فى الإخلاص، وفى الورع، وفى الزهد، وفى الخشوع الخالص لله.

وكان يتحدث فى هيبة الله، وجلاله وعظمته.

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أستاذ السائرين : الحارث المحاسبى ص٤

وكان يتحدث فى محبة الله ، والأنس به، والقرب منه.

وكان حديثه عذباً طلقاً سامياً، فكانت تخشع له الأفئدة، وتلين له القلوب، وتسيل له الدموع، ويتذكر الناس ماالله من فضل، فترق قلوبهم، ويتعاهدون على الاستقامة.(١)

وفيما يبدو لى أن الإمام الأكبر تأثر بالحارث المحاسبى تأثراً شديدا، وهو من خلال حديثه عن منهج المحاسبى كأنما يتحدث عن نفسه، بل إننا لو وضعنا اسم الدكتور عبد الحليم محمود مكان اسم المحاسبى فى النص الأخير ما جاوزنا الواقع قدر حبة من خردل!!

أضيف الى ذلك ملمحاً آخر من خلال استغراق الشيخ فى استعراض الساحة الثقافية فى العالم الإسلامي آنئذ ذلكم الملمح هو درجة النضج التى وصل إليها الشيخ الإمام فى تحليل الواقع الثقافى للأمة منذئذ وحتى وقت الناس هذا، ورغم طول النص الذى استنبطنا منه هذا الملمح إلا أننا سنذكره كاملا للبرهنة على صدق الاستنتاج، وفى ذلك يقول:

" ... استمرت الخصومة بين النصيين ويمثلهم الإمام أحمد.

والبصيريين ويمثلهم الإمام المحاسبى.

والعقليين ويمثلهم المعتزلة.

ومن غريب الأمر : إن أية قوة من هذه القوى لم تخر صريعة، بل بقيت قوية، واستمرت فى كفاح ونضال حتى يومنا هذا.

تسلسلت فكرة المحاسبى ، وتمثلت خير تمثل فى الإمام " الغزالى " ، ثم فى بقية الصوفية من بعده حتى كان العصر الحاضر فكان يمثلها فى أسلوب جديد، وتعبير صادق المرحوم الشيخ " عبد الواحد يحيى "(٢)

وتسلسلت فكرة الإمام أحمد ، فتمثلت فى الإمام " ابن تيمية " الذى وضع لها المنطق وأرسى لها القواعد والأصول، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر وكان يمثلها المرحوم الشيخ " رشيد رضا " تمثيلا قويا.

وتسلسلت فكرة المعتزلة راكدة حيناً وقوية حيناً آخر حتى كان " جمال الدين الأفغاني " فدفعها دفعا قويا الى عالم الظهور.

وكان الشيخ " محمد عبده " من أهم العوامل فى نشرها ملطفة خفيفة تكاد تخفى أو تكاد تلبس ثوب السلفية.

---

(١) السابق : ص ٥

(٢) لو قمنا بوضع اسم الدكتور عبد الحليم محمود فى هذا السياق ما جاوزنا الحقيقة ، بل لن نكون منصفين إذا لم نذكره هنا محاولين إعطاءه بعض حقه والوفاء بجزء من دينه.

وحمل اللواء من بعده المرحوم الشيخ " المراغى " ، والمرحوم الشيخ " مصطفى عبد الرازق " .

لا تزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا، ونعتقد أنها ستستمر ، ذلك: أنها تمثل نزعات فطرية فى بنى الإنسان: فبعضهم واقعى يتجه الى النص، ولا يريد أو لا يمكنه أن يسير الى أبعد منه، وبعضهم : يحتفظ بشخصيته قوية جارفة لا تلين فهو عقلى أو اعتزالي ، وبعضهم : رقيق الشعور، مرهف الحس فهو بصيرى أو صوفى .(١)

كان المحاسبى والدراسات التى أجراها حوله هى المحطة الأولى فى حياته الثقافية، والتى شكلت اللبنات الأولى فى مشروعه الثقافى والذى اختار له الاتباع منهجا واختار له التصوف الإسلامي موضوعا.

كانت المحطة الثانية تتمثل فى تقلده منصب الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية حيث أخذ " يتخطى الحواجز والسدود والعقابيل التى كبلت الأمانة العامة، وحجبتها عن الانطلاق، وفى مقدمتها المال اللازم ، والميزانية الكافية لتنفيذ الركائز التى وضعتها المؤتمرات السالفة ... فأخذ رحمه الله يعمل .. ، وكان من ثمار عمله تنفيذ التوصيات والقرارات ، وكان منها:

أ) طبع المصحف الشريف.

ب) تقنين الشريعة على المذاهب الأربعة..

.. ...

.. ...

ز) وضع خطة عمل مرحلية للجان المجمع وأروقته .(٢)

ومن هذه اللجان كانت لجنة " العقيدة والفلسفة " ، وكان التصوف ضمن مجالات اهتمامها على النحو الذى " يكفل له دوره فى إعادة المجتمع، ويدخل فى هذا : وضع أسس نظام النشاط الصوفى فى الأمة الإسلامية الحديثة ."(٣)

ورغم إلحاحنا على توحد المشروع الثقافى للإمام الأكبر وبلورته فى اتجاهه الصوفى قراءة وتأليفا إلا أنه من الظلم له أن نتغاضى عن

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أستاذ السائرين ص ٦،٧

(٢) د. رؤوف شلبى : شيخ الاسلام : عبد الحليم محمود ص ٢٧٣ ، ٢٧٤.

(٣) السابق : ص ٢٩٣.

الجوانب الأخرى المجاورة للتصوف فى دائرة اهتمامه، بيد أن هذا الإلحاح له ما يبرره من وجهة نظرى، وهو نظرة الإمام للتصوف الحق باعتباره تجسيدا عمليا للإسلام الحنيف، بل إن من الإنصاف له أن نذكر اهتمامه بفروع العلوم الإسلامية الأخرى، وخصوصا وقد نص عليها وعلى وظيفتها فى التكوين العلمى للصوفية باعتبارهم دعاة وهداه،

وفى ذلك يقول : " إن الصوفى داعية وهاد ، وقد بين القرآن الكريم شروط الداعية الهادى، وأول شرط أن يكون على بصيرة من أمره. والدعوة على البصيرة هى الدعوة على أساس من العلم.

ومن أهم ما يعين الصوفى على أداء رسالته الكتب التالية:

١) تفسير القرآن الكريم ، ويمكن أن يكتفي بتفسير الجلالين.

٢) رياض الصالحين.

٣) الترغيب والترهيب .

٤) السيرة النبوية لابن كثير .

٥) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى.

٦) الرسالة القشيرية.

وهذه المجموعة من الكتب هى الحد الأدنى الذى لا يطمئن الإنسان على الصوفى بدونه (١)

والشيخ فى وصيته هذه امتداد لشيوخ التصوف السابقين الذين مارسوا القراءة وفرضوها على أتباعهم، بل إنه أدق منهم لأنه اختارها قراءة متنوعة وجعلها موسوعية بينما كان السابقون يختارون لأتباعهم القراءة الصوفية الخالصة بل جعلوها من آداب السالكين، وفى ذلك يقول الإمام الدردير : " ومن آدابهم : مطالعة كتب القوم ليتعلم منها الأدب ، ويعرف منها حال أهل الله تعالى، فبالآداب ترتقى إلى مقام الأحباب .(٢)

ثم .. " لابد للمريد من مطالعة كتب القوم الموضوعة في الآداب ليتعلم أخلاق القوم منها فيسايرهم ، وذلك ككتب سيدنا عبد الوهاب الشعراني - رضى الله عنه- كالعهود والمنن، وغير ذلك، وككتب سيدنا مصطفى البكري -رضى الله عنه- وكالإحياء للغزالى ، ومختصرة،

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو البركات سيدى أحمد الدردير ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢) السابق : ص ١١٠

وكالحكم لابن عطاء الله، والتنوير في إسقاط التدبير له، وكرسالة القشيرى ..... وغير ذلك .[١]

ولم تكن القراءة قاصرة علي المريدين أو الأتباع فحسب بل إن شيوخ التصوف كانت لهم قراءات متنوعة في التصوف وفي غيره ،ونكتفي الآن بإيراد بعض النماذج فقد درس أبو مدين الغوث كتاب الرعاية للمحاسبي ،وكتاب إحياء علوم الدين للغزالي ،وكتاب السنن للترمذي ،وكتاب الرسالة القشيرية [٢]،وقد أقبل الإمام الغزالي بهمته على طريق الصوفية ،وابتدأ بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبى طالب المكي ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد ،والشبلي ، وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم [٣] ،وقد كان لأبي الحسن الشاذلي كتب مفضلة يداوم علي دراستها لتلاميذه ومريديه منها :إحياء علوم الدين ،وقوت القلوب لأبي طالب المكي ،وكان أبو الحسن يقول عنها:"كتاب الإحياء يورثك العلم والقوت يورثك النور"[٤] بالإضافة إلى الرسالة القشيرية ،وكتاب الشفاء للقاضى عياض ،وختم الأولياء للترمذي ،وكان يدرس للمتعمقين المتخصصين كتاب المواقف للنفرى ،وهو من الكتب التي تحتاج إلي استعداد خاص.[٥]

فإذا عدنا إلي شيخنا وجدنا أنه كان قارئا من الطراز الأول لا يكتفي بمطالعة الكتاب مرة واحدة ،بل كان يعود كثيرا لما قرأه ،وفى كل مرة فتح جديد ،صنع ذلك مع "لطائف المنن"على سبيل المثال،وفى ذلك يقول:(وعهدى بكتاب "لطائف المنن"عهد قديم، فقد قرأته قراءة متأنية حينما شرعت فى الإعداد للكتابة عن أبى الحسن الشاذلى - رضى الله عنه- ثم قرأته مرة ثانية حينما شرعت فى الإعداد للكتابة عن أبى العباس المرسى ،ورجعت إليه أكثر من مرة بعد ذلك لظروف ومناسبات عدة).[٦]

ولكن السؤال الملح الآن :هل تعتبر القراءة طريقا للتصوف؟ والإجابة عن هذا السؤال قام بها الشيخ بنفسه إذ يقول: " ولكن التصوف ليس - فى جوهره - قراءة، وإنما هو - فى جوهرة - عمل ..

(١) نفسه : ص ١٢٣

(٢) د. عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ص ٣٦.

(٣) السابق : ص ٣٩

(٤) ابن عطاء الله السكندرى تحقيق د. عبد الحليم محمود ص ١٧٩،١٨٠

(٥) السابق : مقدمة التحقيق ص ١٩

(٦) نفسه : المقدمة ص ٢١.

والإمام الغزالى يحدثنا عن تجربة فيبين أنه قرأ كتب الصوفية ولكنه يعترف بأن هذه القراءة لم تجعل منه صوفيا فاتخذ الطريق الذى يؤدى إلى الغاية وهو الطريق العملى".[١]

بل إنه يعمق الإجابة أكثر ويعطى إيضاحاً أكبر فيقول :" إن التصوف ليس علما نسبيا وليس بحثا دراسيا ، وتلك حقيقة تبدو واضحة فى هؤلاء الذين يكتبون كثيرا عن التصوف من المستشرقين، أو من الباحثين الجامعيين الذين يدرسون التصوف من الخارج على أنه شكل من الأشكال أو رسم من الرسوم ...

كلا، إن التصوف ليس كذلك؛ ولأنه شئ آخر فإن كل من كتبوا عنه على أنه شكل قد أخطأهم التوفيق ... ، وإن ما كتبه المستشرقون عن التصوف إنما يعطى صورة لضلال الطريق الى الحقيقة.[٢]

بل إن الإمام يعنون لفقرة بقوله: لا يكتسب التصوف عن طريق القراءة، كتب تحتها : والمنهج إذن : إنما هو تزكية النفس ، أو إجلاء البصيرة. كيف يتأتى ذلك ؟

هل يتأتى ذلك عن طريق القراءة والدرس؟

هل السبيل إلى معرفة الغيب مباشرة هو البحث والدرس والاستقصاء، ويتفاوت الناس فى الإشراق بتفاوتهم فى شمول الدراسة، وعموم التحصيل؟ كلا قطعا.

... فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد، وعزوف النفس عن الدنيا.

ثم يقول على لسان الإمام " الغزالى " فعلمت يقينا: أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك.

وابن سينا حينما أراد أن يحدد طريق البصيرة حتى يصير سر الإنسان –على حد تعبيره– مرآة مجلوة لم يحدده بقراءة وبحث، وإنما حدده بإرادة ورياضة.

وأبو الحسن النورى يرى فى صراحة أن التصوف ليس علما، ويعلل ذلك بأنه لو كان علما لحصل بالتعلم، ولكن الأمر ليس كذلك، وليس طريقة تزكية النفس إذن العلم الكسبى. [٣]

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو بركات سيدي أحمد الدردير ص ٧٥.

(٢) د. عبد الحليم محمود: سهل بن عبد الله التسترى ص ٩٥.

(٣) د. عبد الحليم محمود : قضية التصوف ص ٤٢٤،٤٢٥

ولعلنا قد فصلنا القول فى مسألة القراءة، وكررنا مصطلح التصوف عدة مرات دون أن نعرّف به سواء عند شيوخ التصوف و مؤرخيه أو عند الإمام الأكبر نفسه، ومن هنا نحاول علاج هذه المسألة منهجياً لنرى أن الشيخ – رضى الله عنه– قام بالتعرف على عشرات التعريفات ثم بدأ بتحليلها، وتصنيفها، وانتقاء التعريف الذى مال إليه .

يتحدث الإمام عن تعريف التصوف بواسطة شيوخه قائلا: " ولقد عبروا عن ذلك فى صراحة لا لبس فيها، وفى وضوح لا غموض فيه، ونبدأ بذكر أقوالهم فى تعريف التصوف باعتباره منهجا:

وهذه التعريفات : إما أن تصوّر المنهج شاملاً، وإما أن تصور جزءا منه:

١- الصوفى : من صفا قلبه: (تزكية النفس).

٢- التصوف: تمام الأدب : (المنهج فى جانبه الأخلاقي).

٣- الصوفى: من صفىّ ربه قلبه فامتلأ قلبه نوراً، ومن حلّ فى عين اللذة بذكر الله.

٤- التصوف : أن يختصك الله بالصفاء،فمن صفّى من كل ما سوى الله فهو الصوفى.

٥- وللجنيد بالنسبة لتعريف التصوف أكثر من تعريف، كل منها يوضح جانبا من الجوانب: منهجا كان أو غاية .

وقد بلغت تعريفاته أكثر من عشرة تعريفات، والتعريف الآتي يصوّر جوانب كثيرة، ولكنه مع ذلك لا يأتى على كل الجوانب، يقول : " التصوف : تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتى، ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة نزوات النفس، ومنازلة الصفات الروحية، والتعلق بعلوم الحقيقة، وعمل كل ماهو خير إلى الأبد، والنصح الخالص لجميع الأمة، والإخلاص فى مراعاة الحقيقة، واتباع النبى – صلى الله عليه وسلم – فى الشريعة."

وهناك بعض تعريفات تتصل بالغاية ، فقد سئل الشبلى : ما بدء هذا الشأن ؟

وما انتهاؤه؟

فقال: بدؤه معرفته، وانتهاؤه توحيده، أى نهايته: أشهد أن لا إله إلا الله.

بيد أن هذه التعريفات كلها تعتبر قاصرة، وقيمتها الكبرى فى أنها تصور جانبا من الجوانب، أو زاوية من الزوايا، وهى حينما تصور

المنهج وحسب فإنها لا تصور التصوف كاملاً، وحينما تصور الغاية وحسب فإنها لاتصور التصوف على مايراه القدماء والمحدثون.

وهؤلاء القدماء والمحدثون - سواء أكانوا من الصوفية ، أم من مؤرخى التصوف - يتجهون إلى أن التصوف منهج وغاية، إنه طريقة وحقيقة، إنه سلوك ونتيجة.

والصوفية يشبهون الوحدة التى تجمع بين المنهج والغاية بالدائرة ومركزها، يقول الشيخ عبد الواحد يحيى: " إن الطريقة هى الخط الذاهب من الدائرة إلى المركز، وكل نقطة على الدائرة هى: مبدأ الخط ، وهذه الخطوط التى لا تحصى، تنتهى - كلها- إلى المركز؛ إنها " طرق " وهى طرق تختلف تبعاً لاختلاف الطباع البشرية؛ ولهذا يقال: " الطرق إلى الله كنفوس بنى آدم. "

ومهما اختلفت فالهدف واحد؛ لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقةٍ واحدة، على أن هذه الاختلافات الموجودة فى المبدأ تزول شيئا فشيئا مع زوال الإنيّة، وذلك حينما يصِل السالك إلى درجات عليا، تزول فيها "صفات العبد" التى ليست إلا سجنا : " الفناء " فلا تبقى إلا الصفات الربانية: " البقاء ".

والطريقةٍ والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما: " التصوف " ، وهو ليس مذهباً خاصاً لأنه الحقيقة المطلقة.

وليست الطرق مدارس مختلفة، لأنها طرق ، أى سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة: " التوحيد واحد ".(١)

وبعد هذا الانتقاء الواعى، والتحليل الناضج لتعريفات التصوف عند شيوخ الصوفية يحق لنا أن نتساءل : ما هو التعريف المختار عند الإمام الأكبر ؟ والإجابة عن هذا السؤال يسيرة ، بل هى فى تناول كل مطالع لإنتاجه الطيب؛ لأنه كان مباشرا فى هذه المسألة حيث أوردها فى سياق مستقل تحت عنوان واضح فى عدة من مؤلفاته هو: تعريف التصوف فيما نرى ، يقول تحته :

إن التعريف الذى نراه والذى يجمع جوانب التصوف، إنما هو تعريف الكتانى الذى يقول:

---

(١) د. عبد الحليم محمود : مقدمة تحقيق غيث المواهب العلية ص ٢٦-٢٨

انظر : قضية التصوف للإمام الأكبر ص ٤٣٦-٤٣٨

التصـــوف: صـــفاء ومشـــاهـــدة.

ونقول في يقين ناتج من كل ما سبق، وهو يقين يسد الطريق في وجه كل من يحاول أن يثير أوهاما ضد التصوف والصوفية:

إن المنهج الصوفي إنما هو تحقيق واقعي لقوله تعالى:

﴿قـد أفلـح مـن زكـاهـا﴾

فتزكية النفس هي صفاؤها وتصفيتها ، إنها الوصول بها إلى الصفاء، والمنهج محاولة للقرب - ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا - من:

﴿قل إن صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين لا شريك له و بذلك أمرت و أنا أول المسلمين .﴾

أما الغاية فإنها : الوصول إلى المشاهدة التي يقول الله تعالى في بيان من حققوها وتحققوا بها: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولوا العلم .﴾

إن الغاية هي الوصول إلى : أشهد أن لا إله إلا الله.(١)

بيد أننا لاحظنا الإمام الأكبر في كتاباته يفرق تفرقة واضحة بين التصوف كمنهج سلوكي للوصول إلى مقام المشاهدة وتحقيق التوحيد وبين الصوفية كبشر قاموا بتحويل هذا المنهج من الإطار النظري إلى الواقع العملي ؛ ولهذا نلاحظ أنه بينما لجأ إلى التحديد في تعريف التصوف رغم تعدد التعريفات إلا أنه لجأ إلى عكس ذلك عندما تحدث عن الصوفية في المجموع العام أي دون التعريف بآحادهم: شيوخا ومريدين، ولنضرب مثالا لذلك ساق فيه سؤالا تم توجيهه للإمام الشبلي وذكر إجابته عليه على النحو التالي: " سئل الشبلي - رضي الله عنه- : لم سميت الصوفية بهذه التسمية؟ فقال : " لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ولولا ذلك لما تعلقت بهم تسمية".

ويعلق الإمام تعليقا رائعا على هذا القول فيقول: " وهذه البقية هي التي يحاول الصوفية التخلص منها، ولقد جاهدوا في أن تفنى شخصيتهم في دعوتهم، وأن تكون دعوتهم في سبيل الله، وحاولوا بكل ما استطاعوا من جهد أن يلقوا بكل الأضواء على الطريق، وعلى الدعوة وعلى الرسالة، ولو كان في إمكانهم أن يتخلص الفرد منهم من فرديته، وأن ينتهي الشخص منهم من شخصيته: أعني من " أنا " ليصير بكليته ذائبا:

(١) د. عبد الحليم محمود : مقدمة تحقيق غيث المواهب العلية ص ٢٨،٢٩

انظر : قضية التصوف ص ٤٣٨

قولا وحالا وشعورا وذوقا ووجدانا في محيط الربانية... لو كان في إمكانهم ذلك على أتمه لسعدوا بهذا.

إن جهادهم الأكبر في أن يكونوا مخلصين مخلَصين.

وإذا كانت درجة الكمال البشري في ذلك لا تتأتى إلا للأنبياء والرسل فإن الصوفية يجاهدون دائما في تحقيق :

﴿ ألا لله الدين الخالص .﴾

وقضية ﴿ ألا لله الدين الخالص .﴾ في ذروتها تلغى الإنية،أو بتعبير آخر تلغى " أنا " إنه لابقاء للعبد الذي أخلص العبودية مع سيده.(١)

بات من الواضح الآن هذا الفهم العميق عند الإمام للتصوف كمنهج وللصوفية كبشر جسدوا هذا المنهج، واللافت للنظر هنا رؤية الشيخ لنهاية التصوف وأنها تفضي إلى " التوحيد "، ونكران الذات عند الصوفية ، وبعبارة أخرى التأويل العبقري لمصطلحي " الفناء والبقاء" والتوجه بهما توجها أخلاقيا وصولا إلى درجة " الإخلاص" ، وتتميز صياغة الشيخ " بتلوين " العبارة إذا جاز لنا استخدام هذا المصطلح الصوفي، ولولا خشية الاستطراد لدللنا على ذلك بكثرة من كتاباته الجميلة ، ولكننا نكتفي بإيراد نموذج واحد في هذا السياق حيث يقوم بتعريف المصطلحين السابقين في جملة مركزة:

" الفناء عن كل مذموم والبقاء بكل ما هو محمود.

ثم يستطرد:- أو بتعبير أدق- الفناء عن البشرية أي: نسيان الإنية. والبقاء بالربانية".(٢)

وكأنه يستلهم الأمر القرآني في قول الحق عز وجل: ﴿ كونوا ربانيين ﴾ ، وهو بهذا يضع - بهذا التعريف- نفسه في مصاف كبار شيوخ الصوفية الأقدمين الذين وضعوا مؤلفات مستقلة في اصطلاحات الصوفية كالقشيري وابن عربي والقاشاني وغيرهم.

و الآن وقد أوشكنا على الوصول إلى الغاية من هذا المبحث تجدر الإشارة إلى نقطة على قدر كبير من الأهمية، حيث نرى أن القراءة هي جزء من المنهج العام للشيخ والمتمثل في " الاتباع والتأسي " والذي كان فيه متساوقا مع نشأته الأولى منسجما مع تكوينه متأثرا بالإمام المحاسبي الذي بدأ عن طريقه اتصاله بميدان التصوف الإسلامي نظريا وعمليا .

(١) د. عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوي ص ٧

(٢) د. عبد الحليم محمود : أبو بكر الشبلي ص ٣٦

وللشيخ الإمام محاضرة [١] قيمة فى موضوع القراءة صاغ فيها رؤيته للمنهج الإسلامي من خلال نموذج القراءة نقتبس منه هذه السطور، يقول الشيخ :

" اقرأ رمز كل الحياة : و" اقرأ باسم ربك الذى خلق " مجرد رمز ... وما يتأتى مطلقا أن يكون المعنى الوحيد لاقرأ باسم ربك الذى خلق القراءة ... إنها رمز يشمل ، أو يتضمن فى معناه الحقيقي كل الحياة .. فاقرأ باسم ربك الذى خلق معناها .. طبيعى .. اقرأ باسم ربك الذى خلق... ولكنها رمز ، لا عمل إلا باسم ربك الذى خلق .. تكلم باسم ربك الذى خلق .. نم باسم ربك الذى خلق .. لتكن حياتك كلها : حركة وسكونا .. صمتا وقولا .. لتكن الحياة كلها باسم ربك الذى خلق .

والآية الكريمة :﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ تفسرها فيما بعد آية أطول منها قليلا والمعنى هو : ﴿ قل إنَّ صَلاتِي و نُسُكِي و مَحْيَايَ و مَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِين لا شَرِيكَ لَهُ و بِذَلِكَ أُمِرْتُ و أنا أول المُسْلِمِين ﴾.

المطلوب فى الإسلام أن تكون الصلاة، وأن يكون النسك، وأن تكون الحياة كلها، وليست الحياة فحسب، أن يكون الممات أيضا.. أن يكون كل ذلك لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك أمرنا معه صلوات الله وسلامه عليه. [٢]

والواضح للوهلة الأولى فى هذا النص سلاسة العبارة واسترسال الأداء، لكونها محاضرة شفهية تختلف إلى حد ما عن الكتابة عند الإمام والتى يتحرى فيها التركيز واختزال المعانى فى عبارات مختصرة لا تخلو أيضا من الاسترسال أحيانا ، ونحاول إيضاح ما ذكرناه سلفا عن المنهج الاتباعى عند الإمام باقتباس فقرة أخرى من تلك المحاضرة، بنى فيها فكرته على الاستفهام والمقابلة، وفيها يقول:

" ولماذا يجب أن تكون حياتنا باسم ربك؟ ، أو أن تكون حياتك باسم ربك؟ ، ما الذى يوجب هذا ؟

ولماذا لا تكون الحياة باسم " أفلاطون " وقد وضع جمهورية..وضع نظاما للمجتمع سماه " الجمهورية " ؟

(١) د. عبد الحليم محمود : الإسلام يدعو إلى العلم، محاضرة ألقاها الشيخ فى كلية الهندسة – جامعة أسيوط يوم السبت ١٩٧٠/٤/١٨ عندما كان وكيلاً للأزهر ، وقد قام الدكتور رؤوف شلبى بنشرها فى كتابه : شيخ الإسلام من ص ١٩٥ حتى ص ٢١٨

(٢) د. رؤوف شلبى : شيخ الإسلام : عبد الحليم محمود ص ١٩٩

لماذا لا تكون الحياة باسم " أرسطو " ؟

لماذا لا تكون باسم " كارل ماركس " ؟

لماذا تكون باسم " ربك " ؟ ، ماهو الموجب ؟، ماهو الذى يضطرنا إلى أن تكون الحياة باسم " ربك " ؟ .

ولماذا لا تكون باسم فيلسوف آخر ؟

ويأتى فى هذه الآية الكريمة...يأتى الدليل الطويل العريض الذى يوجب أن تكون الحياة باسم ربك وهو كلمة ... " الذى خلق ".

وذلك أن الذى خلق هو الذى كون كل خلية من الخلايا على الأخرى، وهو الذى ركب كل ذرة من الذرات .. إذن .. هو الأعرف بك ، فإذا وضع لك تربية فإنما يضع التربية المثلى التى تتناسب معك، والتى تتناسب مع وضعك.

﴿ ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾

إنه يعلم كل ذرة .. كل خلية .. إنه الذى ركب .. إنه الذى خلق.."[١]

هكذا جعل الإمام الأكبر – رضى الله عنه– من القراءة عنوانا على الحياة الإسلامية بأوسع ميادينها، وقد جمع فى محاضرته بين العرض والتحليل والاستفهام والمقارنة ، وراعى فيها الشكل (الصياغة) والمحتوى (الموضوع) بأسلوب فريد ، وليت المقام يسمح لنقل فقرات أطول، ولكن الإشارة تغنى عن طول العبارة، والله المستعان.

(١) السابق : ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

المبحث الثانى

الكتابة : عطاء الإمام الأكبر للمكتبة الصوفية

لا يملك الباحث الذى يطالع التراث المكتوب للإمام الأكبر إلا أن يعلن عن دهشته وإعجابه بمهارته واقتداره؛ لامتلاكه ناصية البيان، ولما حباه الله تعالى به من مواهب وملكات أتاحت له الفرص المتوالية للكتابة الدائمة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ - رضى الله عنه- كان يعتبر الكتابة لونا من ألوان الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، ويحسن أن نتذكر ما سبق لنا إيراده فى المبحث السابق حول القراءة ، وكيف كان الإمام يراها منهج حياة للمسلمين، ليتضح لنا تكامل منهجه العلمى من خلال جناحيه الرئيسين: القراءة والكتابة، وانعدام اقتصارها على الفعل المباشر لكل منها، بل الانطلاق من خلالهما إلى أفاق :

الحياة الإسلامية القائمة على الاتباع والتأسى.

الدعوة إلى الله تبارك وتعالى على بصيرة.

ومن ثم تحقيق التوحيد فى الجانب المعرفى.. وتجسيد الاستقامة فى الجانب السلوكى .. فما هى دوافع الكتابة عند الشيخ الإمام ؟

الإجابة عن هذا السؤال تضعنا وجهاً لوجه فى جو الدعوة إلى الله تبارك وتعالى من خلال فعل الكتابة وممارسة التأليف، وفى ذلك يقول: " أعرضت الحضارة الحديثة عن الجانب الروحى، واندفعت فى كشف قوانين المادة للاستعلاء والغلبة ، واندفعت فى تشجيع الفرد على أن يحل رأيه فى الجانب المعنوى محل قوانين الله فى المجتمع، وشقيت الإنسانية شقاء لا حد له من جراء الإعراض عن التوجيهات فى شتى مجالات النواحى الاجتماعية : عقيدة أو أخلاقا أو تشريعا.

وكان لابد من أن ينشط المؤمنون الصادقون فى طريق الدعوة إلى الله تعالى، وأن يضاعفوا الجهد فى هداية الإنسانية إلى الإيمان ، وما يتضمنه من فضائل ، وما ينتج عنه من أمن الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وصور الدعوة إلى الإيمان تتنوع وتتعدد ، فمنها:

١- الدعوة - مثلاً- عن طريق إيضاح موضوع الرسالة الذى يتنوع هو الآخر ويتعدد فيكون بيانا للقرآن الكريم أو شرحاً للأحاديث النبوية الشريفة.

٢- الدعوة عن طريق الكتابة فى سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم-، وهو -صلوات الله وسلامه عليه- المثل الكامل لتطبيق الرسالة وإخراجها إلى الواقع كما أحب الله سبحانه وتعالى.

٣- الكتابة عن الشخصيات التى سارت فى طريق الله تعالى ملتزمة شريعته سبحانه.

ونحن - والحمد لله- كما كتبنا فى كل هذه الموضوعات متكاتفين فى ذلك مع هؤلاء الذين يسيرون على نفس الطريق ."[١]

.. اندفع الإمام الأكبر فى هذا الطريق لا يلوى على شئ سوى أداء رسالته فى الدعوة إلى طريق الله تبارك وتعالى بكل ما أتيح له: وعظا ودرسا، كتابة وتأليفا، خطابة وفتوى، قيادة وريادة ، ولكننا بصدد معالجة الكتابة عنده ؛ ولهذا فنحن مضطرون للالتزام بمنهجية البحث و الاكتفاء بتحليل هذه الوسيلة من وسائل الدعوة ، ومن هنا فلابد من الأخذ فى الاعتبار النظر إلى جانبين على قدر كبير من الأهمية، وهما :

الجانب الشخصي، وهو الذى يرتبط بشخصية الإمام الأكبر.

والجانب الموضوعي، وهو المرتبط بما يختاره من موضوعات للكتابة فيها.

أما عن الجانب الأول المتعلق بالإمام نفسه ، من حيث:

التهيئة النفسية- إعداد المراجع- جو الكتابة - ممارسة الكتابة .

فالحديث عن الجانب الشخصى المرتبط بهذه الأمور عند الشيخ يقتضينا التذكير بما صدّرنا به هذا البحث من الانبهار الممتزج بالدهشة، أو الإعجاب المصحوب بالإكبار ، وذلك ليس تحيزا للشيخ الإمام بقدر ما هو محاولة لإعطائه بعض حقه علينا وعلى تلاميذه، كيف لا؟، وهو نفسه اختار الوفاء للشخصيات التى ترجم لها ، وكتب عنها، استمع إليه وهو يقول عن الشاذلى: " .. على أن من حق أبى الحسن علينا ونحن نكتب عنه أن نستفيض فى شرح فكرة من أفكاره.."[٢] ؛ ولهذا - وغيره- لابد أن نكون أوفياء مع الشيخ كما كان وفيا مع من كتب عنهم من شيوخ الصوفية.

الكتابة عند الإمام بالإضافة الى كونها لونا من ألوان الدعوة الى الحق تبارك وتعالى كانت منهجا وأسلوبا لحياته فى حله وترحاله، بل إننا لا نعدو الحقيقة إذا حكمنا بأن الكتابة لديه كانت لونا من ألوان العبادة كان

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو يزيد البسطامى٨،٩

(٢) د. عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٩٥

يمارسها على مدار أوقاته كلها، بحيث كانت كعملية التنفس التى لا يستطيع الإنسان الحياة بدونها دقائق معدودات.

ومن الملاحظ قيام الشيخ -أحياناً- بذكر بعض الملابسات المصاحبة لتأليف هذا الكتاب أو ذاك! ، و من ذلك - مثلا- قوله عن نفسه: " ... أخذت أتحين الفرص للبدء فى التأليف حتى كان أمر السفر لحضور الاحتفال بتنصيب شيخ العلماء فى " يوغوسلافيا ".

وأخذت المراجع، ومنذ أن استقر بى المكان فى الطائرة أخذت أكتب، كتبت فى الطائرة، وكتبت فى فترات الفراغ فى " بلجراد " ، ولما وصلت إلى " سراييفو " معقل المسلمين ومكان تجمعهم المبارك كنت أستفيد مما يتاح من أوقات الراحة لأكتب، وكان الوقت المفضل هو حينما أستيقظ فى الفجر على صوت المؤذن يدوى فى أرجاء المدينة مجلجلاً مخترقا السكون والصمت.

وكنت أستيقظ مع الكلمات الأولى للمؤذن ، وبعد الصلاة أجد فراغا - لا بأس به - للكتابة.

وما إن انتهت إقامتى " بيوغوسلافيا " ، وما إن نزلت من الطائرة على أرض مصر الطاهرة إلا كنت قد انتهيت من مسوّدة هذا الكتاب.

إن الله سبحانه يضع - أحياناً- البركة فى الزمن، كما يضع البركة فى الطعام مثلا ،

هل سمعت بما يسميه الصوفية: " انفساح الزمن" ؟. " (١)

وقريب من هذا ما حدث - فى الطائرة أيضاً- فى رحلته إلى الهند، وحول ذلك يقول: " وفى فضاء الله الواسع، وبينما كانت الطائرة فى سيرها السريع نحو الهدف كنت أنا بين القرطاس والقلم أخطط لمنهج الكتاب. "(٢)

والشيخ بين التهيئة النفسية والإعداد الفعلى لكل مشروع ينوى القيام بالكتابة فيه كان يتحين الفرصة للبدء فى ممارسة فعل الكتابة والتأليف لا يعوقه شئ عن ذلك ؛ فهو يقوم بجمع المراجع، والقراءة المتأنية، ووضع الخطوط العريضة لكل مؤلف، ولنأخذ نموذجا آخر وهو قيامه بالترجمة للإمام الدردير، حيث يقول: " .. فقد بدأت التفكير فى الكتابة عن الإمام الدردير فى شهر ربيع سنة ١٣٩٣هـ ، وذلك أثناء زياراتى لضريحه المبارك، وأخذت فى الشهر نفسه أجمع المراجع من هنا وهناك، وقد يسر الله جمعها، وجمع الأهم منها فى أيام قليلة، وما إن تم

(١) د. عبد الحليم محمود : القطب الشهيد عبد السلام بن بشيش ص ٤-٦

(٢) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى ص ٨

جمع الأهم منها حتى هيأ الله الظروف لزيارة الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم- فى شهر مولده الشريف، فأخذت المراجع معى، وفى الروضة الشريفة بدأت الكتابة عن سيدى أحمد الدردير، ولما انتهت مدة الإقامة بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وسافرت معتمرا الى مكة المشرفة ، أخذت فى الدراسة والكتابة عن سيدى الدردير بجوار بيت الله الحرام." (١)

إلا أنه من الملاحظ أن فترة الإعداد كانت تطول أحياناً لتأخذ سنين عددا، مثلما حدث مع كتابته عن الإمام أبى الحسن الشاذلى ، فلقد عزم عليها ثم حيل بينه وبين إنفاذ هذا العزم لفترة من الزمن طويلة، وفى ذلك يقول الشيخ: " منذ أكثر من خمس عشرة سنة كنت فى زيارة أحد الأصدقاء، وأخذ الحديث مجراه فى نواح عدة، ثم تطرق إلى أبى الحسن الشاذلى.

وكنت فى ذلك أجهل الكثير عن هذا القطب الكبير، كنت أسمع اسمه فى كل مكان، ولكن الظروف لم تكن قد أتاحت لى بعد أن أتصل به اتصالا لا يزيد على سماع الاسم إلا قليلا.

.....

وأخذت - مع الزمن- أستكمل المراجع ، فكان من أهمها كتاب " لطائف المنن " فى مناقب الشيخ أبى العباس وشيخه أبى الحسن، تأليف: ابن عطاء الله السكندرى.

واستغرقت فى القراءة والدراسة فترة من الزمن ، وكتبت فى مجلة الأزهر مقالا بعنوان " أبو الحسن الشاذلى ومعركة المنصورة."

ثم صرفتنى الصوارف ، وطويت صحف أبى الحسن، وشغلت بأمور أخرى، ومضت الأيام والسنون وصحف أبى الحسن مطوية.

حتى إذا كانت سنة ١٩٦٢م دعيت إلى تونس أستاذاً زائراً - لمدة شهر- بجامعة الزيتونة، فتجددت عندى الذكريات عن أبى الحسن، وأخذت أتنسم عبيره فى تونس، لقد صعدت إلى الجبل الذى كان يتعبد به، ودخلت المغارة التى كان يعتكف بها...

وشعرت فى المغارة بطمأنينة النفس، وبالسكينة تملؤنى، وبتجمع خواطرى بصورة عجيبة، وبالتركيز الذهنى الذى يندر ويعز وجوده.

وترددت على المغارة فى أعلا الجبل، وفى كل مرة أزور فيها المغارة تتردد ذكريات الكتاب على ذهنى، والصحف التى طويت، وتتجدد

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو البركات سيدى أحمد الدردير ص ٥

مع ذلك الرغبة فى الكتابة عن أبى الحسن . ومع ذلك بقيت الصحف مطوية .. .."[١]

لاحظنا فى ختام النص الأخير بقاء صحف أبى الحسن مطوية، وأخذت الأيام تمر والشيخ لا يبدأ فى الكتابه عن الشاذلى رغم وصوله إلى البيئة التى عاش فيها أبو الحسن، والجو التعبدى الذى نشأ فيه ، والمكان الذى مارس فيه نسكه وصوفيته، إلا أن ذلك يرتبط بسمة فى غاية الأهمية تخص الكتابة عند الإمام الأكبر – رضى الله عنه– ونصوغها على هيئة تساؤل: –هل كانت الكتابة عنده إرادية؟

وبصيغة أخرى: هل كان الشيخ الإمام يصدر فى كل ما يكتب عن إرادته الشخصية؟ أم ينتظر الإذن للشروع فى الكتابة ؟! فى واقع الأمر نستطيع أن نلمح الأمرين معا:

الإرادة الشخصية الداخلية

والإذن – أو الإملاء – الخارجى.

ولكن الإذن أكثر وضوحا من الإرادة الشخصية بدليل إلحاح الدافع وقوته للكتابة عن أبى الحسن، ومع ذلك لم يستطع إنجاز مشروعه إلا عندما دفع دفعا إلى ذلك على هذا النحو غير التقليدى، ولنتركه يحكى تجربته:

".... إذا بى أرى – فيما يراه النائم– شخصاً أعرفه، أراه فى ملابس غير ملابسه العادية، أراه يلبس ملابس شرطى، ويمسك بيده قيدا ، ويقول لى آمرا : اكتب عن أبى الحسن الشاذلى.

وتلكأت فى الاستجابة ، وأردت أن أهمل الموضوع ، وأن أتحدث معه فى شئ آخر، فإذا به يهدد بوضع القيد فى يدى، وإذا به ينذر ويتوعد، فقلت له: هل معنى ذلك أن أترك ما بيدى من أعمال لأكتب عن أبى الحسن الشاذلى؟ ، فقال : نعم ! اترك ما بيد ك من أعمال واكتب عن أبى الحسن .....

واستيقظت ... "[٢]

ولكن الأمر المستغرب بعد هذه الرؤيا الواضحة أن الشيخ شرع فى الترجمة لصوفى آخر هو الإمام سهل بن عبد الله التسترى وخصوصا التفسير الصوفى عنده لارتباطه بمناهج الدراسة فى كلية أصول الدين آنئذ، ثم حيل بينه وبين الكتابة عن التسترى، وهذا يعطينا تأكيدا جديدا

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٣-٦

(٢) السابق ص ٧

على أن الإرادة الشخصية للكتابة ليست هى العامل الحاسم الوحيد فيها بل تحتاج إلى ما أسميناه الإذن الخارجى، وقد تجلى هذا الإذن فى هذه الرؤيا التى قصصناها آنفا، ورغم ذلك فإنه لم يمارس الكتابة عن الشاذلى، بل شرع فى الإعداد لموضوع ثالث عن " الإيمان " ثم حيل بينه وبين إتمامه ونحب أن ننبه فى هذا السياق قبل إيراد هذه التجربة التى لا تخلو من طرافة إلى أن الإمام قد أنجز مشروعيه عن " الإمام التسترى "، وعن " الإسلام والإيمان " فى مرحلة لاحقة، وهذا برهان آخر على صدق الاستنتاج بأهمية عامل الإذن الخارجى كدافع رئيس للكتابة عند الإمام، والآن نعود إلى تجربته الطريفة عندما شرع فى الكتابة عن " الإيمان " ثم صُرف عنه وعاد إلى الشاذلى عودة فعلية أتم فيها كتابه عنه وحول ذلك يقول : " .... إننى كتبت فيما مضى عن موضوع " الإيمان " ، وأن هذا الموضوع – وقد فكرت فيه فيما مضى، وكتبت فى زوايا منه، وتحدثت عنه فى الإذاعة والتليفزيون– يسهل علىّ تناوله بالبحث والدراسة، ويتيسر أن أعود فيه إلى المراجع من جديد، وإلى ما كتبت فأنسق وأضيف ، وأحذف وأزيد آملا أن أنشر دراسة لعلها تفيد فى العصر الحاضر.

وذات يوم أخذت بعض المراجع عن موضوع الإيمان فى رحلة إلى الريف آمل أن أجد فى هدوء الريف وصفائه مايساعد على التركيز الذهنى، والسرعة فى إنجاز الموضوع، وكنت مع بعض الأصدقاء...

ونزلنا من السيارة – سيارة أجرة– أمام القرية، وعادت السيارة من حيث أتت، عادت وبداخلها المراجع ، لم نتذكر إلا بعد أن أصبحت السيارة بحيث لا أثر لها من رقم أو عنوان، أو غير ذلك من آثار ، وقد تذكرت الرؤيا عندما أصبحت السيارة لا عينا ولا أثرا.

"اترك ما بيدك واكتب عن الشاذلى."

وقلت فى نفسى: لنكتف بهذه الدروس، ولنبدأ – والله المستعان وبه التوفيق– بالشاذلى ، ثم يكون ما يريده الله بعد ذلك من مؤلفات، وعدت إلى الشاذلى ووجدت المراجع مستكملة:

المراجع الأصلية .

والمراجع الثانوية.

وكتب الطبقات.

ووجدت المراجع القديمة والمراجع الحديثة.

لقد وجدت كل ما أحتاج إليه عن الشاذلى فى متناول يدى، ووجدت العمل ميسرا سهلا، ووجدت الصدر منشرحا والحمد لله ." [١]

والإمام الأكبر نفسه يعطى أولوية للعامل الخارجى ويصرح بذلك قائلاً فى مفتتح كتابه عن الشاذلى : " هذا الكتاب:

لقد اضطررت إلى كتابته اضطراراً ، لقد حُملت على تأليفه حملاً، وما كان لى فى تحديد زمن كتابته من إرادة حرة، أو اختيار ."[٢]

علما بأن انتفاء الإرادة ليس قاصراً على المرحلة السابقة للكتابة، بل يمتد ليكون حاضرا أثناءها، ويرتبط بأمر آخر وهو الفتح فيها، وكأنه يكتب ما يُملى عليه من علم لا يعتمد على الوسائل الكسبية، فهو أقرب إلى ما أشرنا إليه فى المبحث السابق حول " العلم الوهبى " ، وفى ذلك يقول عن الإمام الدردير " ... والغريب في الأمر أننى بدأت طبيعيا فى الكتابة عن والده، ثم فى الكتابة عنه، وفى أثناء الكتابة عنه جرى القلم – دون سابق تخطيط– فى هذه الأجواء، وتركت القلم يسير دون محاولة التحكم فيه، ولعلى لو أردت التحكم فيه لما استطعت إلى ذلك سبيلا."[٣]

واللافت للنظر بالنسبة للجانب الشخصى الذى يخص الإمام الأكبر فى موضوع الكتابة والتأليف بالإضافة لما سبق هو الانقطاع عن الكتابة فترة طويلة بعد عودته من فرنسا، اللهم إلا ما كان من ترجمة كتابين من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، يقول عن هذه الفترة: " مكثت فى كلية اللغة العربية عشر سنوات مرت شبه مجدبة فى الإنتاج العلمى، فلم أنتج فيها إلا كتاب: وازن الأرواح من تأليف أندريه موروا، وترجمة كتاب فى الأخلاق وهو من تأليف أندريه كرسون، وهو من جزأين:

الأول: المشكلة الأخلاقية والفلاسفة.

الثانى: الأخلاق فى الفلسفة الحديثة.[٤]

وقد شاركه فى ترجمة كتاب الأخلاق الشيخ أبو بكر ذكرى الذى يقول عنه الإمام الأكبر : وهو مثل كريم للخلق الكريم .[٥]

ورغم اقتصار الشيخ على هذين العملين المترجمين، وعدم الإنتاج على مدار عشر سنوات إلا أنه من الملاحظ خصوصية انتقاء هذين

---

(١) السابق ص ٨،٩

(٢) السابق : ص ٣

(٣) د. عبد الحليم محمود : أبو البركات سيدى أحمد الدردير ص ٦

(٤) د. عبد الحليم محمود: أوراق خاصة نشرها الدكتور رؤوف شلبى. فى كتابه شيخ الإسلام ص ٤٩

(٥) السابق : نفس الصفحة.

الكتابين بالذات، فالأول يدور حول البحث فى ميدان الروح مما سيكون له أثره فيما بعد فى انخراط الشيخ فى سلك الدراسات الصوفية من الناحية النظرية ، وانتظامه ضمن الدوائر الصوفية من الناحية العملية.

والكتاب الثانى عن الأخلاق، والأخلاق هى الوجه الحقيقى للإسلام من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التصوف الإسلامي لا ينفك عن الأخلاق فى بنائه، واعتماد قضاياه على الأسس الأخلاقية ، واعتماد رجاله فى رحلة سيرهم وسلوكهم فى طريقهم إلى الحق تبارك وتعالى على الأخلاق ، بل إن المقامات تلك العلامات الواضحة، والمنارات الهادية فى رحلة السير ما هى إلا درجات أخلاقية فى المقام الأول ، مثل: التوبة، الزهد ، الورع ، الصبر ، الشكر، .. وغيرها..

وأحب أن ألفت النظر مرة أخرى إلى كتاب " وازن الأرواح " لأهميته كعلامة فارقة فى المرحلة العلمية للإمام الأكبر ؛ إذ أنه " من المدهش فى ذلك الوقت أن يقرأ الناس فى مصر والعالم العربى المسلم قصة مترجمة عن الفرنسية لعالم أزهرى. لكن أهمية ترجمة هذه القصة ترجع إلى الغاية العلمية المنشودة منها، ذلك أن الفكر فى هذه المرحلة التى ترجمت فيها القصة كان يتلذذ من كتابات الأوربيين ، وكان الفكر الأوروبي المادى هو المطل من نافذة الترجمة العربية، وكانت الأحاديث عن الروح وخلودها لها افانين شتى فى المقالات والمناقشات، فإذا ما ترجمت قصة وازن الأرواح : بفكرتها الأوروبية عن خلود الروح وعن وجودها وسعادتها ... ألخ، فقد ألقم الماديون أحجارا فى أفواههم، وانتصرت العقيدة الإسلامية التى نادت بخلود الروح : إما فى النعيم وإما فى الجحيم.

يقول الإمام الأكبر : كتاب " وازن الأرواح " :كنت قد قرأته فى باريس وأعجبت به، كان يروقنى دائما ما كتب " اندريه موروا " الأديب الفرنسى الكبير.

ترجمت كتاب " وازن الأرواح " على الخصوص لما فيه من الحديث الممتع عن الروح ، ولهذا النقاش العميق الخاص بإثبات وجود الروح، والرد على الماديين فى ذلك بأدلة خرجت بموضوع الروح من الشطط العقلى الذى يسير بالإنسان فى سهولة إلى الإيمان بوجودها.

والقصة بإيجاز : أن طبيباً قرأ فى بعض الصحف أثناء الحرب العالمية الأولى أن زميلا له من الأطباء قد اكتشف أن وزن الجسم ينخفض بعد الموت انخفاضا مفاجئا وأنه جرب ذلك مرة حتى استيقن من الظاهرة فاستنبط من هذا الانخفاض دليلا قاطعا على وجود الروح ، وأن الجسم إنما ينخفض وزنه لأن الروح فارقته.

قرأ الطبيب هذا الخبر فى الصحف فعنى بالمسألة، وراح يقوم التجربة، ونجحت، وأغراه النجاح إلى أبعد من هذا فمضى يجرب حتى استطاع أن يحصر هذا الذى يفارق الجسم بعد الموت فى حيز ضيق، فاستخلص شيئا من النور حصره في أنبوبة زجاجية ضيقة، وعرف أنه الطاقة التى تمنح الإنسان الحياة ..."[١]

ولعل هذا بعض ماحدا بالإمام فيما بعد أن يحقق رسالة حيّ بن يقظان لابن طفيل، مع القيام بدراسة تحليلية حول قضاياها، ومحورها الرئيس عندما ماتت الظبية، وقام حيّ بتشريح جسدها فى محاولة للوصول إلى الشيء المفارق الذى استمدت منه الحياة، وهو اللطيفة .. الروح .. السر ..

لعلنا استرسلنا – طويلاً- فى تتبع الجانب الشخصى المرتبط بالكتابة عند الإمام الأكبر؛ ولهذا يحسن أن نبدأ فى تناول الجانب الثانى من الموضوع وهو المرتبط بما يختاره من موضوعات للكتابة فيها، ونذكر الآن بما أشرنا إليه فى المبحث السابق حول ميل الشيخ إلى التصوف ، وما ذلك إلا لنظرته إلى التصوف الإسلامي باعتباره الصورة المثالية للإسلام الحنيف التى تجسدت فى واقع الحياة الإسلامية من خلال الصوفية كنماذج حية حولت الفكرة إلى واقع أو النظرية إلى تطبيق ؛ ولهذا كان الجانب الأكبر من عطائه للمكتبة الإسلامية فى الدراسات الصوفية: ترجمة للرجال وتحقيقا للتراث.

فما هى الدوافع التى جعلت الإمام الأكبر – رضى الله عنه- يميل إلى التصوف ويفضله على غيره من العلوم الأخرى: مترجمة أو إسلامية خالصة.

الإجابة عن هذا السؤال تعتمد فى المقام الأول على رؤية الإمام لهذه العلوم الأخرى، وقد كان رحمه الله واضحا كل الوضوح فى كل سياق أجرى فيه مقارنة بين التصوف وبين ماعداه منها، أو فى كل مناسبة كان الحديث فيها عن أحد هذه العلوم.

ولنبدأ بإيراد وجهة نظره حول العلوم المترجمة عن اليونانية القديمة، وفى ذلك يقول :" وحينما بدأ المسلمون فى أوائل العصر العباسى يترجمون الثقافات الأجنبية فإنهم لم يسيغوا ترجمة الإلهيات والأخلاق؛ ذلك أن يقينهم المطلق فى نصهم المقدس جعلهم يستهينون بكل ماعداه مما يتصل بما وراء الطبيعة أو بالأخلاق، وكان موقفهم ذلك سليما كل السلامة؛ ذلك أن كل فكرة أو كل رأى متصل بما وراء الطبيعة يخالف ما

(١) د. رؤوف شلبى : شيخ الإسلام ص ٥٣،٥٤

أتى به الوحى إما أن يكون : خرافة أو ضلالاً عقلياً ، والحياة الجادة لا تسيغ إنفاق الزمن فى دراسة خرافات أو أضاليل عقلية.[١]

ثم يستطرد: " والواقع أن إقامة ما وراء المادة على العقل إنما هو شهوة أو هوى، ذلك أنه منذ ابتداء العهد اليونانى، وهذا النهج من البحث فى إخفاق متتابع، وفى فشل مستمر، وفى تناقض ملازم، ورجاله يناقض بعضهم البعض، ويهدم كل ما بناه الآخرون، وعلى توالى الزمن تنهار الآراء، وتنشأ آراء أخرى لاتلبث أن تنهار وهكذا دواليك.[٢]

وأحكامه هذه على " مناهج البحث " بالفشل وعلى " القائمين عليها " بالتناقض نشأت لديه فى فترة سابقة عند تلقيه العلم على أساتذته فى جامعة السوربون بفرنسا، وهى ملكة نقدية واضحة أهلته للمقارنة بين ما لديه من موروث سابق وبين المعروض عليه، وهيأته للمحافظة على موروثه، وأتاحت له إصدار الأحكام القاطعة التى ظل محافظا عليها فى مؤلفاته كلها، وفيا لمنهجه حتى لقى الله عز وجل، وقد كانت هذه الأحكام تتبلور فى خواطره أثناء استماعه لدروسه فى تلك المرحلة وفى ذلك يقول: " وما من شك فى أن هؤلاء الأساتذة الذين يدرسون لنا ينتقد بعضهم بعضا فى آرائهم ، ويخطئ بعضهم بعضا، كما ينتقدون السابقين عليهم ويخطئونهم، وسيصنع مَنْ بعدهم صنيعهم فيوجهون إليهم النقد ويخطئونهم، وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد أخذ " دوركايم " اليهودى يعمل بمعاول هدامة فى كل القيم والمفاهيم الدينية والأخلاقية، وأخذ تلميذه الأكبر اليهودى " ليفى بروهل " ينهج منهجه ، ويسير على طريقه فى " علم الاجتماع " وفى " علم الأخلاق ".

وكتاب " ليفى بروهل " : " الأخلاق وعلم العادات " مثل واضح لهذا النوع من هدم القيم، ومحاولة للقضاء على كل المثل!

فكرت إذن فى اختلاف الآراء ، أو فى هدم بعضها بعضاً فى مواجهة كل ما يقوله الأساتذة.

وكنت أقول فى نفسى – فى مواجهة كل أستاذ- سيهدمك المعاصرون لك، وسيهدمك الذين يأتون من بعدك! "[٣]

تعرفنا فيما سبق على وجهة نظر الشيخ فيما ترجم من الثقافات الأجنبية بصفة عامة، ولكنه بعد التعميم قام بتخصيص الفلسفة اليونانية

(١) د. عبدالحليم محمود : التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٤٢٦

(٢) السابق : ص ٤٢٧

(٣) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى ص ١٧٥

والمنطق الأرسطى ليوجه إليهما سهام نقده كلما اقتضته المناسبة، وكان لا يفتأ يكرر وصف الفلسفة اليونانية بأنها وثنية، وفى ذلك يقول : " والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية، وأعنى بذلك أنها فلسفة لا تتبع عن الوحى، فليس لها أساس من الدين، وكل ما كان كذلك فهو وثنى.

أرأيت إلى النبات يخرج من الأرض دون أن تكون هناك يد تتعهده؟! ، إننا نطلق عليه أنه :

" نبات شيطانى " كذلك الأمر فيما يتعلق بالآراء الروحية التى لاتنبت فى الجو الدينى ، فيتعهدها الوحى بالرعاية والهداية والتوجيه ؛ إنها " آراء شيطانية " ، أى آراء وثنية . "[1]

ولم يقتصر انتقاد الإمام للفلسفة اليونانية وحدها بل امتد ليشمل الفلسفة فى كل العصور، ويعلن فى وضوح قاطع فى محاضرة عامة بعد استعراض للفلسفة فى مراحلها: اليونانية، وفى العصور الوسطى، والعصر الحديث ليخلص إلى القول بأن الفلسفة لا رأى لها، ويعترف بأن رأيه هذا سيكون مفاجأة لبعض الناس، ثم يتساءل ويجيب : " كيف يتأتى أن تكون هذه الفلسفة التى ملأت الدنيا صياحاً منذ نشأت، ولم تكف – منذ أن نشأت للآن– عن الصياح لا رأى لها ؟!

والأمر أيسر من أن يحتاج إلى استفاضة.

أما أولاً: فلأن " الفلسفة لا رأى لها " نتيجة واضحة لكل ما قدمنا.

وأما ثانياً : فخذ أية مسألة من مسائل الفلسفة فستجد فيها الآراء التى تنكر، والآراء التى تثبت ، إنك ترى الرفض والقبول فى كل أمر.

والرفض فلسفة ، والقبول فلسفة.

وقد يكون الرأى توقفاً عن الرفض والقبول وهو فلسفة، وقد يكون شكاً فى الرفض، وشكاً فى القبول فى آن واحد ، وهو أيضاً فلسفة.

والشك إما أن يكون شكاً فى قيمة الآراء التى تعرض : نفياً أو إثباتاً.

وإما أن يكون شكاً فى قيمة وسيلة المعرفة نفسها، وهى الحواس والعقل.

وكل ذلك فلسفة فى كل مسألة.

---

(١) السابق : ص ٩٣ ، انظر : قضية التصوف للإمام الأكبر ص ٧٩

وإذا تساءلت – وأنت على علم بالجو الفلسفى– جو المتاهات والوهم –: ما الرأى الفلسفى فى هذه المسألة أو تلك؟

فستجد كل ما قدمناه ماثلاً أمامك يثبت لك بما لا مرية فيه أنه (لا رأى للفلسفة)." [1]

واللافت للنظر فى هذا النص أن الإمام الأكبر – عليه رحمة الله– كان يمارس التفلسف بهذه القسمة العقلية البديعة، وهذه الاستفهامات، وهو لم يهاجم الفلسفة رغبة فى الهجوم كهدف رئيس وإنما لتعارضها مع وحى السماء، أو – على الأقل– لاستغنائها وانعزالها عنه فى أغلب الأحيان هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى : إن الشيخ لم يهاجم الفلسفة وهو بمعزل عنها وعن خوض لجتها والسباحة فيها؛ لأنه درسها دراسة مستوعبة، بل قام بالتأليف فيها، ويبقى كتابه القيم " التفكير الفلسفى فى الإسلام " من أروع ما كتب فى العصر الحديث فى الفلسفة الإسلامية ، وإلى جواره تأتى دراساته القيمة الأخرى حول فلسفة ابن طفيل، والفلسفة والحقيقة ، وتحقيقه للفلسفة الهندية، وترجمته للفلسفة اليونانية، وترجمته للأخلاق فى الفلسفة الحديثة ، وكتاباته المتميزة عن الشيوعية، وغيرها، ويذكرنا منهجه هذا بمنهج الإمام الغزالى عندما عرض للمذاهب الفلسفية فى كتابه " مقاصد الفلاسفة " ثم قام بهدمها فى " تهافت الفلاسفة " ، وقد وصفه بعض تلاميذه بأنه غزالىّ القرن الرابع عشر الهجرى كما سنعرف بعد قليل.

ورغم هذا الهجوم سالف الذكر على الفلسفة اليونانية ووصفها بالوثنية إلا أن الإمام الأكبر يلتمس العذر لليونان الأقدمين ويقول : " .. ولقد كانت الأمة اليونانية معذورة بعض العذر، فما كان فى ربوعها دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة ، وما كان مثلها فى ذلك إلا كمثل العصر الجاهلى فى الجزيرة العربية ، فلجأت إلى العقل وألهته ، وأخذت تثبت به وتنكر، فضلت وأضلت . "[2]

فإذا أردنا استطلاع رأى الشيخ فى علم آخر من علوم اليونان المترجمة فى صدر العصر العباسى، وهو المنطق الأرسطى وجدنا آصرة قوية بينه وبين الفلسفة اليونانية فى نظر الإمام الأكبر، وحول ذلك يقول :" كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية ، وقد أرادت أن تجد لها لجاما

---

(١) د. عبد الحليم محمود : الفلسفة محاضرة منشورة فى مجلة البحوث الإسلامية التى تشرف عليها الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء بالرياض سنة ١٤٠٠هـ ، وأعادت نشرها جماعة أنصار السنة المحمدية فى كتيب مستقل ص ٢٩-٣١

(٢) د. عبد الحليم محمود : قضية التصوف ص ٨٠

يعصمها من الخطأ فاخترعت فناً وثنياً آخر هو فن المنطق ، فما أجدى ولا أغنى ، ولا تقدم بالفكر الوثنى فى عالم الصواب شروى نقير."(١)

وتزداد المسألة وضوحاً عندما نستمع إلى حديث الإمام عن المنطق فى محاضرته القيمة عن الفلسفة والتى نشرت بالرياض عام ١٤٠٠ هـ حيث يقول عن أرسطو فى لهجة تهكمية : " لقد فكر أرسطو وقدر ، ثم فكر وقدر ، وخرج إلى العالم بما يسمى " المنطق الأرسطى " أو " المنطق الصورى " ، وأخذ هذا المنطق فى عالم الفكر الفلسفى مجالاً من الشهرة والعناية لاحد له ، وأخذ فى الجو الإسلامى شهرة ذائعة الصيت .

وتبناه جميع فلاسفة الإسلام ابتداء من " الكندى " فى المشرق إلى " ابن رشد " فى المغرب .

ولكن كثيرا من المسلمين ذوى الأصالة فى الفكر الإسلامي أبانوا فى وضوح أن المنطق الأرسطى منهار ، وأنه متهافت ، وأن الخلل فى جوهره وأركانه ، وأنه خلل لا يُصلح .

وكان من هؤلاء ابن تيمية ، وابن حزم .

والمحدّثون جميعا لا يجد المنطق عندهم ترحاباً ولا قبولاً."(٢)

وما قلناه حول فهم الشيخ للفلسفة واستيعابه لقضاياها لدرجة التأليف فيها نكرره بالنسبة للمنطق الأرسطى ونبرهن على ذلك باقتباس هذه الفقرة النقدية للقياس المنطقى عند أرسطو حيث يقول فيها : " وقد كتبنا – نحن- ننبه على أن المنطق لا يحسم خلافا ولا يفصل حقا عن باطل ، ومما كتبناه فى المنهج الأرسطى ما يلى:-

إن المناطقة حقاً لا يشترطون فى مقدمات القياس أن تكون مسلّمة صادقة فى نفسها، وإنما يشترطون أن يسلمها المتجادلون فحسب، وقد تكون منكرة كاذبة فى نفسها، وفى هذه الحالة يكون القياس صحيحا ونتيجته باطلة ، وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس الأرسطى؟

ما قيمته إذا كان لا يعوّل فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النتيجة وإن لم تطابق النتيجة الواقع؟

ما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها؟

---

(١) السابق : ص ٨٠

(٢) د. عبد الحليم محمود : الفلسفة ... مرجع سابق ص ١٨،١٧

إنك إذا قلت : الكثير من العلم يؤدى إلى الاستقلال الفردى، وكل مايؤدى إلى الاستقلال الفردى مضر بالمجتمع فالكثير من العلم مضر بالمجتمع كان هذا قياساً صحيحاً فى نظر المناطقة الأرسطيين.

وإذا قلت : الكثير من العلم يؤدى إلى التماسك الاجتماعي وكل ما يؤدى إلى التماسك الاجتماعي مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد للمجتمع كان هذا أيضا قياساً صحيحاً عند المناطقة ، ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان."(١)

وطفق الشيخ الإمام يذكر ملاحظاته النقدية للمنطق الأرسطى فى كثير من مؤلفاته ليعلن فى النهاية عن إخفاقه قائلا : " وأخفق المنطق الأرسطى إخفاقا تاما ، لم يفد – ولا قلامة ظفر- فى بيان الحق والباطل ، ولم تستفد الإنسانية منه – ولا شروى نقير – أية فائدة.

ومع ذلك فقد فتن به قوم ، ودامت الفتنة – فى جونا الإسلامي- إلى الآن.

وعلى الرغم مما كتبه الإمام " ابن تيمية" فى " نقد المنطق" وفى " نقض المنطق "، وفى " الرد على المنطقيين " فقد بقى المنطق فتنة للكثيرين.

وكان وما يزال يدرس فى الأزهر – لا على أنه صورة من صور الضلال الفكرى- ، وإنما على أنه قاعدة من القواعد العلمية."(٢)

ومن المناسب هنا أن نعلم أن الإمام الأكبر كان معجباً بآراء الشيخ مصطفى عبد الرازق ميالاً إلى الأخذ بفكرته عن " أصول الفقه " واعتباره منطق المسلمين ، حيث " إنه القواعد التى رسمت فى الجو الإسلامى ؛ ليسير الرأي فى ضوئها على ما يحب الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم ."(٣)

وعلم الكلام رغم نشأته فى الجو الإسلامي صادراً عن مبادئ الإسلام الحنيف إلا أن الإمام الأكبر -رضى الله عنه- كانت له ملاحظات عليه.

وقبل أن نتحدث عن موقفه من علم الكلام نشير إلى السياق العام الذى ضمنه موقفه هذا، ولعلنا مازلنا نذكر أنه - رضى الله عنه- كان يعتبر الكتابة لونا من ألوان الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ، وقد كان

---

(١) السابق : ص٢١،٢٢

(٢) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى ص ٩٤

(٣) السابق : ص ٩٤

يمارس الدعوة من خلالها ومن خلال غيرها من الوسائل المتاحة ، وقد أتيح له مالم يتح إلا للقلة النادرة المخلصة التى كان لها اتصال بالغرب مثل الدكتور محمود زقزوق ، والدكتور محمد عبد الله دراز، والدكتور عبد الجليل شلبى ، والدكتور أحمد الطيب ، والدكتور محمد عبد الفضيل القوصى وغيرهم، ومن قبل هؤلاء الأعلام كان رفاعة الطهطاوى والإمام محمد عبده وهؤلاء جميعا لم تفتنهم حضارة الغرب وتقدمه المادى ، بل حاولوا مد الجسور الحوارية معه خدمة لدينهم الحنيف ، عن طريق المؤتمرات والندوات والمحاضرات ، وغيرها بهدف الدفاع عن دينهم ، ودحض الشبهات المثارة ضده ، والكشف عن قيم التسامح والعفو والإنسانية فيه، والبحث عن القواسم المشتركة بينه وبين الأديان الكتابية فى الأخلاق والإنسانيات .

وقد أتيح للإمام الأكبر الاتصال بالغرب كثيراً فى صدر شبابه المبارك عندما كان طالبا دارسا للدكتوراه ، ثم بعد عودته ، وتقلبه فى المناصب إلى أن وصل لمقام شيخ الإسلام / الإمام الأكبر.

وإننا نستطيع أن نقول ونحن مطمئنين : إن همه الأكبر كان الإسلام والدعوة إليه التى ظل يمارسها حتى لقى وجه ربه الأعلى ، والسياق الذى أعلن فيه عن وجهة نظره فى " علم الكلام " كان فى جو الدعوة إلى الله تبارك و تعالى ؛ إذ يحكى الإمام هذه القصة : " منذ سنوات جاء أحد الأمريكان ليمكث فى مصر فترة من الزمن يتعلم فيها الإسلام ، واتصل بالهيئات التى تمثل الإسلام، فبلغت الحيرة منتهاها حينما أرادت هذه الهيئات اختيار كتاب يتعلم من خلاله الإسلام.

ومن الطبيعى أن يتجه الذهن إلى كتب علم الكلام ،فهى كتب الدفاع عن العقيدة .. ولكن إذا نظرنا فى كتب علم الكلام نجد أنها جدال لاينتهى بين الذين يبحثون فيه بالزيغ ، وابتغاء الفتنة ، والجدال فيها يبدأ ويعاد ولا ينتهى .

ثم هى تصور - على الخصوص - المستوى الثقافى للعصور الوسطى ، ولا تمت بصلة إلى الأبحاث الحديثة ، ومن الطبيعى أن تكون كذلك لأنها ألفت فى العصور الماضية، وما ألف منها حديثا ألف على نمطها اتباعا للآباء والأجداد ، وبغضا للخروج عن المألوف.

وقد استفاضت كتب الكلام فى الحديث عن القدر مع نهى رسول الله- صلى الله عليه وسلم - نهيا صريحا عن الحديث فيه ، وإذا كانت قد استفاضت فى الحديث عن صلة الذات الإلهية بالصفات إذ أنه محاولة لاكتناه الذات الإلهية التى نهينا عن التفكير فيها ، وأمرنا بالتفكير فى آثارها.

ومما لاشك فيه أن اكتناه سر الألوهية من حيث الذات ، أو من حيث القدر من المتشابه الذى نهينا عن الخوض فيه ." (١)

ثم ينقل الإمام الأكبر نصا عن ابن قتيبة يقول فيه : "...وقد تدبرت مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله مالا يعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ....،ويتهمون غيرهم فى النقل ، ولا يتهمون آراءهم بالتأويل.

ومعانى الكتاب والحديث ، وما أودعاه من لطائف الحكمة ، وغرائب اللغة لايدرك بالطفرة والتولد، والعرض، والجوهر ، والكيفية ، والأينية ... ولو ردّوا المشكل منها إلى أهل العلم لوضح لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرئاسة.."

ثم يعلق على هذا النص قائلاً : " إن عرضنا الدين الإسلامي على هذا النمط من العرض جعل كتبنا لا يتيسر فهمها للأجانب عنا، ولم لم يكن فى الإسلام تلك القوة الذاتية التى تستولى على القلوب، وتغمر الأفئدة لضاق بهذه الكتب المسلمون أنفسهم .

الإسلام إذن بحاجة إلى عرضه عرضاً سهلاً ميسراً قوياً ، وبأساليب متنوعة ، وصور مختلفة حتى نتلافى هذا التقصير.." (٢)

وقد نظر الإمام إلى كتب التفسير نظرة شبيهة بنظرته إلى كتب علم الكلام ، ويتساءل : " وإذا لم نأخذ الدين من كتب علم الكلام فهل نأخذه من كتب التفسير ؟!

لقد انتهى تفسير القرآن الكريم إلى أن أصبح مسرحاً يتباري فيه النحويون واللغويون وبلاغيو العصور المتأخرة ، وغشت هذه النواحي علي الهداية." (٣)

بعد أن تعرفنا علي وجهة نظر الشيخ - رحمه الله- في بعض العلوم نستطيع الإشارة إلى مؤلفاته، وقد قام الدكتور رؤوف شلبي - رحمه الله - بنشرها في كتابه عن "شيخ الإسلام" وهي:

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أوروبا والإسلام ص ٤٤،٤٥

(٢) السابق: ص ٤٧ ، ولم يترك الإمام مناسبة إلا كتب فيها منتقدا لعلم الكلام فى قضاياه مثل وجود الله ، مشكلة الصفات ، قضية وجود الله ، ومناهجه العقلية التى ابتعدت عن المنهج القرآنى المباشر . انظر بالتفصيل : التفكير الفلسفى فى الإسلام ، والإسلام والعقل ، والمدرسة الشاذلية الحديثة

(٣) السابق : ص ٤٤

*** في إحياء المفاهيم الإسلامية :**

- القرآن والنبي.
- الإسلام والإيمان.
- العبادة.
- الإسلام والعقل (أو: التوحيد الخالص) .

*** في قضية التصوف:**

- التصوف عن ابن سينا.
- المدرسة الشاذلية.

*** مع الرسول-صلي الله عليه وسلم- :**

- دلائل النبوة.
- الرسول- صلي الله عليه وسلم-.
- السنة الشريفة.

*** في العبادات والذكر:**

- الحج إلى بيت الله الحرام.
- الجهاد والنصر.
- جهادنا المقدس.
- القرآن في شهر القرآن.
- فاذكروني أذكركم.
- يارب .
- الصلاة : أسرار و أحكام.

*** موقف الإسلام من الشيوعية :**

- الإسلام والشيوعية.
- فتاوى في الشيوعية.
- أبو ذر الغفاري والشيوعية.
- منهج الإصلاح الإسلامي.

*** في قضايا الفلسفة :**

- التفكير الفلسفي في الإسلام.
- فلسفه ابن طفيل.
- الفلسفة والحقيقة.

*** كتب مترجمة:**

- الفلسفة اليونانية .
- الأخلاق في الفلسفة الحديثة.
- المشكلة الأخلاقية والفلاسفة.
- وازن الأرواح.
- المسيحية نشأتها وتطورها.
- محمد رسول الله- صلي الله عليه وسلم-.

*** كتب مختلفة:**

- أجزاء من التفسير .
- فتاوى في الأخلاق والمعاملات.
- أوروبا والإسلام .
- الحمد الله هذه حياتي .
- أبحاث ومقالات ومحاضرات، وأحاديث في عده مجلدات.
- في رحاب الأنبياء والرسل..

*** أعلام الفكر الإسلامي:**

- السيد احمد البدوي.
- سفيان الثوري.
- شمس الدين الحفني.
- عبد الله بن المبارك.
- الحارث المحاسبي.
- إبراهيم بن أدهم.
- أبو العباس المرسي.

- علي زين العابدين.
- أبو مدين الغوث.
- سعيد بن المسيب.
- أبو بكر الشبلي.
- أبو الحسن الشاذلي.
- أبو يزيد البسطامي.
- الفضيل بن عياض.
- بشر الحافي.
- ذو النون المصري.
- الليث بن سعد.
- سهل بن عبد الله التستري.
- عبد السلام بن بشيش.
- عبد الواحد جينو .

*** تحقيقات في التراث:**

- الرعاية لحقوق الله للمحاسبي.
- اللمع للطوسي.
- التعرف علي مذهب أهل التصوف للكلاباذي.
- الرسالة القشيرية للقشيري .
- الطريق إلى الله (الصدق) للخراز.
- عوارف المعارف للسهروردي.
- غيث المواهب العلية للنفري.
- الحكم لابن عطاء الله.
- لطائف المنن لابن عطاء الله.
- المنقذ من الضلال للغزالي.

*** في الرقائق والأدب السلوكي:**

- كيف يستقبل المسلمون شهر رمضان

- وربك الغفور ذو الرحمة. (١)

هذا هو عطاء الإمام الأكبر -رحمه الله- للمكتبة الإسلامية،ومن الواضح غلبة الاتجاه الصوفي علي غيره من الاتجاهات ،وقد سبق أن ألمحنا إلى ذلك ،وكشفنا عن علته ودافعه من وجهة نظرنا ،وسنلتقي في المبحث القادم بمزيد من التفاصيل حول إنتاجه في التأليف الصوفي تحقيقا وترجمة ودراسة من خلال التعريف بالتصوف عنده بين المنهج والتطبيق،والله المستعان.

(١) د. رؤوف شلبى : شيخ الإسلام عبد الحليم محمود ص ٢٣٥-٢٣٩

المبحث الثالث

تصوف الإمام بين المنهج و التطبيق

تعرفنا في المبحثين السابقين علي قضية الصياغة عند الإمام بجناحيها الرئيسين: قرأة وكتابة ،من خلال الشكل الخارجي لكل من هما ، و الآن يحدونا الأمل في التقدم خطوات نحو الجانب الداخلي لأبجدية الإمام- رضي الله عنه- من خلال التعمق في دراسة مؤلفاته الصوفية في محاولة لاستخلاص رؤيته:نظريا وتطبيقيا، أو علميا وعمليا بنية التعرف علي المنهج الصوفي وتطبيقه عند الإمام الأكبر وبالله التوفيق.

أولا : المنهج شكلا وموضوعا

١: المنهج شكلا: أدوات الصياغة:

مطالعة التراث الصوفي للإمام تمتلئ بالفائدة التي لا تخلو من المتعة لتفرده بصياغة متميزة لموضوعاته التي يختارها بدقة وعناية وحب،والمتأمل في ذلكم التراث المبارك يتعرف علي أدواته في الصياغة والتي نشير إليها فيما يلي:

أ) التخطيط :

كان من الممكن وضع فقرة عن الاختيار كأداة أولى من أدوات الصياغة قبل التخطيط الذي نحن بصدده الآن ، ولكن تجاوزنا هذا للدخول في التخطيط مباشرة ؛لأن الجانب الاختياري عند الإمام لم يكن منتجا بصفة دائمة بدليل ما ألمحنا أليه في المبحث السابق عند الحديث عن اختياره لموضوعات ثلاث وعزمه علي الكتابة فيها دون أن يتمكن من ذلك في حينه وهي :أبو الحسن الشاذلي ،سهل بن عبد الله التستري، الإسلام والإيمان ، وإن كان قد تم له إنجازها في مراحل لاحقة.

أما التخطيط فنكتفي بما أشار إليه في سيرته الذاتية (الحمد لله هذه حياتي)، وهو من المؤلفات التي كتبها في آخر عمره المبارك ، ولهذا ضمنها خلاصة تجربته الرائعة ، وفي ذلك يقول :(أذكر أن الرئيس "ابن سينا" حينما كان يعزم علي تأليف كتاب كان يعتكف - يومين أو ثلاثة فقط - اعتكافا كاملا أو شبه كاملا ويأخذ في وضع عناوين للأجزاء،جاعلا لكل جزء دفترا ثم يأخذ في وضع عناوين للأبواب - في ثنايا الأجزاء- ، ويترك في الدفاتر فراغا بين الباب والباب ثم يأخذ في وضع عناوين الفصول في الأبواب تاركا فراغا بين كل فصل وفصل بما يقدّر أنه يكفي للفصل، ثم يأخذ في وضع إشارة سانحة لما عساه أن يكون فقرات ، ثم يخرج من معتكفة معتبرا أن ما بقى من الكتاب إنما هو

تشطيبه فحسب ، وأنه في الوضع " السينوي " قد انتهي من تأليفه ، وبعد ذلك يحمل معه الكتاب أينما سار ، فيكتب - بحسب الظروف - كلمة هنا، وكلمة هناك في هذا الفصل أوذاك من أواخر الكتاب أو من منتصفه أو من أوله بحسب الفكرة المواتية. " (١)

أما عن اختياره لمنهج ابن سينا في التأليف والذي كانت أداته الأولى التخطيط، فقد كتب قائلا عنه : " فى فضاء الله الواسع ، وبينما كانت الطائرة فى سيرها السريع نحو الهدف ، كنت أنا بين القرطاس والقلم أخطط لمنهج الكتاب !.

انتهى اعتكافى ،وقد أوشكت الطائرة على الوصول إلى الغاية .

وحملت التخطيط معى.

وفى صباح الاثنين - السادس من ذي القعدة سنة ١٣٩٥هـ الموافق العاشر من نوفمبر سنة ١٩٧٥م - تذكرت التخطيط بعد صلاة الفجر فى " مدراس " من بلاد الهند ، فأخذت القلم وجلست فى شرفة الفندق ، وبدأت أكتب !.

وقد علمتنى التجارب الماضية فى التأليف أن طريقة " ابن سينا " - مع بعض التعديل بالنسبة لى - من خير الطرق:

فالإنسان تختلف استعداداته ، وتختلف إمكاناته من آن لآخر، ومن الخير أن يعمل فى مختلف الظروف العمل الميسور له.

ولقد كان " ابن سينا " يكتب لا يستند إلى هذا المرجع أو ذاك : ينقل منه أو يعزو إليه .

أما أنا ، فقد كنت دائما أحتاج إلى مراجع !

وهذه المراجع أراجعها، وأضع - بين قوسين- المهم منها ، ثم ألتمس نقله فى قصاصات من الورق، ويتجمع عندى مئات من هذه القصاصات : فأرتبها فصولا ، ثم أرتب الفصول ترتيبا متواليا.

ثم أرتب قصاصات كل فصل.

ثم أكتب لا ألتزم ترتيب الفصول الذى وضعته.

وربما بدا لى بعد الفراغ من الكتاب أن أحدث تغييرا فى ترتيب الفصول.

وقد يتساءل القارئ عن استخدامي للقصاصات فى كل فصل؟

---

(١) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى ص ٨

وما كان استخدامي لها إلا لإنارة الطريق فى تفكيرى:

فقد تكون القصاصات موضع نقد!

وقد تكون موضع إهمال.

وقد تكون موضع استئناس لما أرى.

وقد أوردها لأستنتج منها جواً كان يعيشه المؤلف الذى أكتب عنه، أو لأستنتج منها فكرته ."[٢]

تعرفنا على التخطيط كأداة من أدوات الصياغة فى منهج الإمام ، وقد أشار فيه إلى تعامله مع المراجع ، وهو ما سنزيده إيضاحا فى الفقرة القادمة.

ب) التعامل مع المراجع:

كثيراً ماكان الإمام الأكبر يعلن عن مراجعه فى كتاباته ، وحاجته إليها ، وكيفية عثوره عليها ، ومن أمده بها، ومن ذلك مثلا ما أشار إليه عندما عزم على الكتابة عن شخصية الإمام أبى الحسن الشاذلى - رضى الله عنه- حيث أشار إلى أنه وجد صفحات عدة عنه ، ثم وجد فى دار العشيرة المحمدية كتاب " المفاخر العالية " لابن عباد مخطوطا بخط جميل على ورق جميل فاخر ، ووجد فيها أيضا كتاب " درة الأسرار " ، وهو من أنفس المراجع عن أبى الحسن الشاذلى على حد تعبير الإمام الأكبر، ثم عثر على كتاب " لطائف المنن " الذى قام بتحقيقه ونشره فيما بعد ، علما بأن أبى الحسن لم يكن له مؤلفات، وقد سئل: " .. لم لا تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم ؟!

فقال -رضى الله عنه- : كتبى أصحابي."[٢]

وكذلك كان الأمر مع أبى العباس المرسى - رضى الله عنه- حيث لم يضع كتبا مثل شيخه ؛ ولذلك كان الشيخ يجهد نفسه فى البحث عن المراجع : مخطوطة ومطبوعة ، ويجمعها ويقوم بقراءتها واستنباط ما يحتاجه منها للاستعانة به عند الكتابة، بيد أن شيوخ الصوفية الآخرين كانت لهم مؤلفات، ومن هنا كان الشيخ يضم مؤلفاتهم تلك إلى المراجع التى تحدثت عنهم أو ترجمت لهم، ولنأخذ مثالا على ذلك وهو ترجمته للإمام الزاهد عبد الله بن المبارك- رضي الله عنه - حيث قال :" وكتب ابن المبارك تسير علي نسق التأليف في عصره ،فهي أحاديث على

(١) السابق : ص٨،٩

(٢) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ص ٣٧ تحقيق د. عبد الحليم محمود

الرسول - صلي الله عليه وسلم - ،وروايات عن الصحابة والتابعين،وكلمات يسيرة نادرة من المؤلف هنا أو هناك .

وبين أيدينا لابن المبارك كتاب الجهاد، وكتاب الزهد والرقائق، وقد جمعنا قطعة صالحة من أحاديث ابن المبارك، ورواياته من كتاب الحلية ومن غيره، واعتمدنا في الكثير منها علي كتاب الزهد والرقائق،ونسقناها أبوابا لتسهل الإفادة منها،وهي أحاديث وروايات متناسقة مع الروح العامة لابن المبارك في صلاحه وتقواه،وفي تعبده ونسكه، وفي ورعه وزهده."[١]

ولكن الإمام لم يكن ينقل نقلاً مباشراً عن المراجع إلا لضرورة بل كان يقرأ ويستوعب ويحلل ثم يصوغ ما يراه مناسبا ومفيدا بصياغته الخاصة ويصبغه بصبغته الشخصية ويضع عليه بصمته وهو ما نشير إليه في الفقرة الآتية.

جـ- الامتزاج بين الشخصى والمعادل الموضوعي:

قبل الحديث بالتفصيل عن هذه الأداة من أدوات الصياغة في منهج الإمام أود أن أشير إلى ما كتبه في مقدمه كتابه "الحمد لله هذه حياتي" حيث يقول عنه : " .. إنه سرد لحياتي يسير معها في تتابعها وهو ليس سرد لحياتي المادية فحسب ، إن هذه الحياة المادية لم تأخذ منه إلا حجما ضئيلا .

إنه تاريخ لحياته الفكرية علي الخصوص.

وهو خواطر تمر في أثناء الكتابة .

وهو محاولة لبيان بعض الزوايا من آرائي وكتبي الماضية.

أضعها مرة أخرى بين يدي القارئ لما أرى لها من أهمية خاصة.

إنه قصة فكر قبل أن يكون قصة حياة." [٢] .

وقد التقطت هذه الملاحظة، ونبهت عليها في موضع سابق في هذا البحث و الآن أزيدها إيضاحا.

كتاب الحمد لله هذه حياتي كان من المفترض أن يكون كغيره من الكتب التي ألفت في باب يحكي ويقص ويفصل القول في السيرة الذاتية لصاحبه مثلما صنع غيره في مؤلفاتهم ، ولكن الإمام ليس كغيره من

(١) ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن ص ٣٧ تحقيق د. عبد الحليم محمود

(٢) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى ص ١٠

الناس ، ولهذا فان كتابه عن حياته ليس ككتب غيره في هـذا السـياق ، حيث كان ما كتبه عن حياته لا يشكل إلا سطورا قليلة متناثرة في الكتاب، ومن هنا امتزج الشخصى بالموضوعي كما أشرنا .

فقد فصل القول فى هذا الكتاب في كثير من القضايا التي تعرض لها فيما سبق من كتبه وانتصر لهذه الآراء ، وجعل لها حضورا متميـزا في صفحات كتابه غطى بل طغي علي حياته الشخصية .

ولم يكن الأمر قاصراً على القضايا والآراء فحسب بل كان أكثر وضوحا عندما تناول الشخصيات الصوفية بالكتابة أو الترجمـة ، حيـث كان من الوضوح بمكان هذه الخاصية المنهجيـة بينـه وبـين المعـادل الموضوعى الذى يكتب عنه ، ولنأخذ بعض النماذج و منها :

الإمام المحاسبى:

يقول الشيخ عنه : "... كان المحاسبى ينهج فى درسه منهجاً آخر غير الطريق العادى التقليدى:

كان يتحدث فى الإخلاص ، وفى الورع ، وفى الزهـد ، وفـى الخشوع الخالص لله.

وكان يتحدث فى هيبة الله ، وجلاله وعظمته.

وكان يتحدث فى محبة الله ، والأنس به ، والقرب منه.

وكان حديثه عذباً ، طلقاً، سامياً، فكانت تخشع له الأفئدة ، وتلين له القلوب ، وتسيل له الدموع ، ويتذكر الناس ما لله مـن فضـل فتـرق قلوبهم ، ويتعاهدون على الاستقامة ."[١]

حديث الشيخ عن المحاسبى كأنه حديث عن نفسه هو ، وقد التقط هذه السمة من سماته الأستاذ أحمد زيادة الذى نسمعه يعلق على هذا النص قائلا : " هنا سيجد القارئ مقدار العلاقة بين روح الإمام الشيخ والحارث المحاسبى ، وكيف غمس كلماته ، وجمله فى الحب الروحى تجـاه مـن يكتب عنه ، إنه العمق والتقصـى ، وذوب الـروح يصـوغ الكلمـات والجمل." [٢] والآن إلى نموذج آخر:

- الإمام الغزالى:

رغم أن الإمام الأكبر لم يترجم ترجمة مستقلة للإمام الغزالى إلا أنه كان محبا له متأثرا به دائم الثناء عليه ، والنقل عنـه ، والاستشـهاد

(١) السابق : ص ١٢٨،١٢٩

(٢) أحمد زيادة : الإمام عبد الحليم محمود : آخر العلماء الأولياء ص ١٤٥

بأفكاره ، وإيراد تجربته العقلية والسلوكية والروحية من خـلال قيامـه بتحقيق ودراسة أهم أثر من آثاره ، وهو " المنقذ من الضلال " ، "والإمام الغزالى فى هذا الكتاب يحكى تجربة شخصية فى موضوع أثـار ويثيـر الكثير من الجدل.

وهو يثير فى كل عصر التساؤل والتطلع والطموح ، والرغبة فى تنسم نسائم عالم الغيب.

إن كل إنسان عنده نوع من شفافية الروح يحب ويرجو ويأمل أن يعرف شيئاً من هذا الذى يقول عنه الغزالى:

قد كان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ماهذا الذى لم يذكره الإمام الغزالى ؟

إن طبيعة الكثير من البشر حب الاسـتطلاع ، والسـؤال عـن الكيفية...

ومن هنا كانت شهرة كتاب " المنقذ من الضـلال " ، والإقبـال عليه.. [١]

وتجربة الدكتور عبد الحليم محمود شبيهة بتجربة الإمام الغزالى : عقلياً وسلوكيا وروحيا بهذا التدرج الواضح ، بل إن الأمر أعم من هـذا حيث أشار أحد رجال مدرسته وهو واحد من تلاميذه البررة الدكتور عبد الفتاح بركة بعد إيراد وإبراز خلاصة مركزة لآراء وأفكار شـيخه إلـى حاجة الجو الإسلامي فى التوقيت الذى لمع فيه نجم الإمام الأكبر الماسّـة إلى وجوده ، وفى ذلك يقول : " ووراء هذا الركام الذى حطبناه فى ليـل الهزيمة من حصاد العقلانية المفتونة ، وخلف هذا الغثاء الذى أفرزناه فى غشية الوعى عن كبرياء العقلانية الواهمة كانت حقـائق الـدين الجليـة الناصعة ، وكان هتاف الوحى المعصوم النقى القوى ينتظر رجلا كالإمام الغزالى ليصيح بالعقل تلك الصيحة المجلجلة أن يكفف من غلوائـه، وأن يلزم الحدود التى تهيأ له بفطرته ، وأن يلتمس هداية الدين وإرشاده ، فيما يمكن له أن يتلقاه عن الدين فى باب الغيب والأخلاق والتشريع ، وليؤذن بين المسلمين بذلك الأذان المدوى أنْ : " حىّ على الصلاة . حـىّ علـى الفلاح "،وأن عودوا إلى رشدكم ، وثوبوا إلى دينكم ، وأعملوا عقولكم فى اتباع هذا الدين .

هذا هو غزالى القرن الرابع عشر! إنه أستاذنا الإمـام الأكبـر الشيخ عبد الحليم محمود." [٢]

(١) د. رؤوف شلبى : شيخ الإسلام عبد الحليم محمود ص ٧٩،٨٠

(٢) السابق : ص ٦٤٩، ٦٥٠

ثم يقول : " ... وهذه الصيحة المدوية التى راح الإمام عبد الحليم محمود - رضى الله عنه - يجأر بها فى مختلف بلاد الإسلام ، وبكل أنواع البلاغ لم تكن شيئاً جديداً ، أو بدعا فى الإسلام ، أو لم يكن علماء الإسلام على وعى كامل به ، ولكن أصالته وإبداعه تظهر فى قدرته على التخلص من أسر هذه المتاهة التى أحاطت بالمسلمين ، واستمساكه بصفاء بصيرته ، ونقاء عقيدته ، وطهارة فطرته حتى أبصر مالم يبصره الآخرون ، ووضح أمامه النهج الذى حاول أن يطمسه المزيفون ، وتظهر فى قدرته على مواجهة كل هذه التيارات فى وقت تحكمت فيه وأحاطت بمختلف نوافذ الفكر والرؤية والاستبصار ، وأن هذه الرؤية العميقة لم تفارقه ، ولم تتأخر عن نشاطه العلمى ، وإنما واكبته واستمرت منذ بدأ نشاطه العلمى إلى آخر رمق من حياته ، فجعل منها قضيته الأولى، وشغله الشاغل رعاية لدينه ، ورعاية لأمته ، ورعاية لوطنه ، ورعاية لمعهده ، ورعاية لعلمه ." (١)

- الإمام الدردير:

كتابة الإمام الأكبر عن الإمام الدردير إلى جوار اصطباغها بالصبغة الصوفية إلا أنها كشفت عن أمر آخر فى شخصية الإمام وهو يرتبط بالجانب القيادى أو الإداري ، وإن كنا قد اخترنا فى هذه السمة المنهجية عنده حول : الإمتزاج بين الشخصى والمعادل الموضوعى الإمام المحاسبى من خلال منهجه الأتباعى والإمام الغزالى من خلال تجربته السلوكية الكبرى فإننا نختار الإمام الدردير هنا من خلال مشيخته للأزهر، لماذا ؟ لأن الإمام الأكبر عندما قام بالكتابة عن الشيخ الدردير كان ذلك بعد عام ١٩٧٣م أى بعد أن تولى مشيخة الأزهر وأصبح بينه وبين الدردير قواسم قيادية مشتركة تنضم إلى القواسم الروحية المشتركة.

فهو يقول أولاً: " ولقد وضعنى البحث والدراسة عن سيدى الدردير فى أجواء ماكان يخطر ببالى - قبل دراسته - أن أتعرض لها.

لقد وضعنى البحث عن أبى البركات فى قوة فى :

١- جو الأزهر، ومشيخة الأزهر، وأوقاف الأزهر.

ووضعني في قوه في:

٢- جو الخلافة لرسول الله - صلي الله عليه وسلم -.

ووضعني في قوه في:

---

(١) نفسه : ص ٦٥٧

٣- جو الطريق الصوفي،والإصلاح الصوفي." (١)

ثم يتحدث عن صفات شيخ الأزهر كأنما يتحدث عن نفسه فيقول:"... كان شيخ الأزهر في مصر يحمل الإجلال والتقديس: إنه خليفة رسول الله في هذه البقاع ، وكانت تتمثل فيه صفات يقوم الاختيار علي أساسها.

وكان يتمثل فيه :

١- العلم المكتسب الذي يحصله الإنسان بذكائه من الكتب الخاصة بالعلوم الإسلامية : كتب التفسير،والحديث،والفقه ، و أصول الفقه ، والتوحيد، وعلوم العربية...وكان يمتاز علي الأقل في علم أو علمين من هذه العلوم مع إتقانه لبقيتها ، وما كان ذلك إلا لأنه كان يواصل الليل بالنهار فى التحصيل .

لقد كان العلماء إذ ذاك يستيقظون قبل الفجر ويتعبدون ويتهجدون، ويبدأون الدراسة بعد صلاة الفجر مباشرة ، يبدأونها على طهر وروحانية، وكان شيخ الأزهر طالباً وأستاذاً على هذا الغرار ، إنه كان عالما.

٢- وكان على ثقة فى الله سبحانه ، ومن أجل ذلك لم يكن يخشى أحداً إلا الله ، إنه كان من هؤلاء الذين يخشون الله ولا يخشون أحدا غيره، وكانت ثقته فى الله هذه تذلل له الأمور ، وتملأ قلوب الآخرين هيبة.

والثقة فى الله ينبثق عنها أمور كلها سامية ، ينبثق عنها :

طاعته لله سبحانه ، وكان شيخ الأزهر دائما من العّباد .

وكان ينبثق عنها الإخلاص فى السر والعلن ، والإخلاص من المبادئ الأولى الواجبة فى الإسلام .

وكان ينبثق عنها التوكل عليه سبحانه ؛ لأنه إذا وثق به فإنه يتوكل عليه

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾.

وكان ينبثق عنها فضائل أخرى ..." (٢)

إن كتابة الإمام عن غيره من شيوخ الصوفية كان يصل أحياناً إلى مرحلة تلاشى الفرق بينه وبين من يكتب عنه، لدرجة تقترب من الذوبان، وقد كنت متحرجا من استخدام هذا اللفظ إلى أن عثرت عليه عند الإمام

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو البركات سيدى أحمد الدردير ص ٥

(٢) السابق ص٧،٨

حيث يقول عن السادة الصوفية : " .. لو كان فى إمكانهم أن يتخلص الفرد منهم من فرديته ، وأن ينتهى الشخص منهم من شخصيته أعنى من " أنا " ؛ ليصير بكليته ذائبا : قولا وحالا وشعورا وذوقا ووجدانا فى محيط الربانية ، ولو كان فى إمكانهم ذلك على أتمه لسعدوا بهذا.." (١)

د- الدخول المتميز فى الموضوع:

وهذه السمة تناظر ما يسمى بلاغياً " براعة الاستهلال " ، وقد لفت أسلوب الإمام فى الصياغة نظرى كثيرا ، وخصوصا فى هذه السمة المنهجية الجميلة ، وللبرهنة على ذلك نقتبس سطورا مما كتبه عن الإمام أبى بكر الشبلى ، حيث إنه اراد أن يترجم له اختبار إجابة له عن سؤال وجه إليه ثم انطلق للدخول فى موضوعه دخولا متميزا ، نتعرف على ذلك كله فى السطور الآتية : " كان أول ماوجه انتباهي إلى البحث عن الشبلى ما قرأته عنه منذ زمن بعيد ، وقد سئل :

لم سميت الصوفية بهذا الاسم ؟! فأجاب:إنما سميت الصوفية صوفية لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولاها ما تعلقت تسمية .

ويريد الشبلى أن يقول : إن الاتجاه إلى الله ، والقرب منه - وهذا هو التصوف - يقتضى أن يتجرد الإنسان من النزعات والشهوات والنفس الأمارة بالسوء، وأن تذوب شخصيته فى جو الأخلاق الربانية ، وتمحى إرادته فى إرادة الله، وأن يكون هواه تبعا للشريعة، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به "..

وما من شك فى أنه لا يؤمن الإنسان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ... " (٢)

هذا مادخل به الإمام فى موضوعه عن واحد من شيوخ التصوف بعينه ، وهو الشبلى، فماذا عن دخوله فى موضوع عام، ونختار هنا دخوله للحديث عن ظهور الصوفية فى الجو الإسلامي، وكيفية تمهيده لذلك ، ورغم طول النص إلا أننا سنسوقه كله للدلالة على هذه السمة المنهجية عند الإمام ، فقد كتب قائلا : " .. على أن الرسالة الكبرى للصوفية إنما هى الهداية إلى الله تعالى : هداية الحيارى ، وهداية الشاكين، وهداية العصاة ، إنهم يدعون إلى الله على بصيرة ، ويدعون إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلون بالتى هى أحسن ن إنهم يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحدا إلا الله.

(١) د. عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوى ص ٧

(٢) د. عبد الحليم محمود : الشبلى ص ٣٥

وهذه الرسالة هى رسالة رسولنا وحبيبنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وقام بها الخلفاء الراشدون من بعده ، والصحابة - رضوان الله عليهم- ، ولم تكن هناك إذ ذاك تفرقة بين عالم الدين ورجل الدنيا، فقد جمع الصحابة - رضى الله عنهم - بين علماء الدين ورجال الأعمال فى وحدة واحدة منسجمة سخرت فيها جميع الأعمال لأن تكون فى سبيل الله- تعالى- ، وكما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قدوة كان الصحابة - رضى الله عنهم - قدوة.

وحينما أصبحت الخلافة ملكا عضوضا تخصص قوم فى علوم الدين فكان العلماء ...

ولكن الحكام وقد تخلصوا هم من عبء الدعوة والهداية حيث قام بها العلماء أخذوا يستولون على هؤلاء العلماء تدريجيا عن طريق الوظائف والجاه، وتدرج هذا شيئا فشيئا ، فقد بدأ ضعاف النفوس يسيرون تحت راية الحكام ليصيبوا من حطام الدنيا، وأخذت الدائرة تتسع شيئا فشيئا حتى أصبحت شاملة أو شبه شاملة.

وهنا ظهرت فى المجتمع طائفة الصوفية يقومون بما كان يقوم به الدعاة منذ بدء الإسلام .

إنهم أصبحوا خلفاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الدعوة ، وهؤلاء الخلفاء كانت نشأتهم وكان ميلادهم مع نشأة الإسلام وميلاده، إلا أنه لم يكن هناك كلمة - بالنسبة للدعاة - أشرف من كلمة الصحابة، ثم كانت كلمة التابعين هى العلم الشريف لكل من تلاقى مع الصحابة.

لقد ولد التصوف مع الإسلام ، والقرآن ، والسنة ، وسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كلها أعلام هداية فى طريق السالكين إلى الله - سبحانه- ، إنها أعلام هداية من حيث الأساس الذي يقوم عليه الطريق ، وأعلام هداية من حيث المعراج فى السلوك ، وإذا تأملت فى طريق الصوفية ، أو فى غايات الطريق فستجد أنه يقوم على الإسلام ويسير على هداه . "(١)

هـ : الأسلوب الأدبى المشرق:

كان من نعم الله تعالى على الإمام أن رزقه أسلوبا بيانيا مشرقا آسرا لكل قرائه آخذا بلبهم ، ونكتفى بنموذجين للدلالة على هذه السمة المنهجية لديه ، وهما حديثه - أولا - عن علاقات السيد أحمد البدوى بفاطمة بنت برى إذ يقول : " ...إن التاريخ يحدثنا عن محاولات كثيرة من الصالحين، أو من المصلحين لهداية بعض الفاتنات المنحرفات ، إن

(١) د. عبد الحليم محمود : التسترى ص ١٥٦،١٥٧

التاريخ يتحدث عن مريم المجدلية القديسة التى اهتدت على يد المسيح - عليه السلام- ويحدثنا التاريخ فى أسلوب شيق عن " تاييس".

أقرأت قصة " تاييس "؟

إنها انتهت هى الأخرى إلى الصلاح واستقامت على الهداية.

بيد أن الوجه الذى تمثله فاطمة بنت برى يختلف عمن تحدثنا عنهما ، وهو وجه مفهوم من الناحية النفسية.

لم تكن فاطمة بنت برى كراقصة الأسكندرية الأولى " تاييس " ، ولا كغيرها من النساء ذوات الماضى المنحرف ، وإنما كانت عفيفة عفة تشبه أن تكون عصمة من الله لها.

ولم تكن فاطمة فقيرة ، وإنما كانت ذات ثراء عريض : ثراء كفيل بأن يلبى كل ماتشتهيه النفس من ترف وأبهة، وكانت جميلة ، كانت مثلا رائعا فى الجمال.

وكانت تثق بنفسها بحيث لاتخشى أن يفلت منها الزمام ، ولهذه الثقة كانت تقابل الرجال،وتستضيفهم ، وتكرمهم ، وتتحدث إليهم. وكانت صاحبة كبرياء وأنفة.

وكانت كأمثالها شقية بكل ذلك؛ لأنها ككل إمرأة من نوعها تحب أن تسكن إلى رجل وهى لا تحب أن تسكن إلى رجل تافه ، فالرجل التافه يكون مثله بجوارها كمثل امرأة ضعيفة ، امرأة أقل منها فى جميع صفاتها.

كان فؤادها يهفو إلى أن يجد شخصية قوية ، طاغية، آمرة ناهية ، شخصية تجعلها تهدأ وتسكن وتتبع و... تحب .

وبلغت ربيع عمرها، واكتملت أنوثتها ، هل سيفوتها الركب ؟

إنها تريد رجلا... وتستقبل هذا أو ذاك ، ويفتتن بها هذا أو ذاك ، ويتهافت عليها هذا أو ذاك .

وتوقعهم هى فى شباكها ، ولا تقع فى حبائلهم ، وترى فيهم كل يوم وجوها من الضعف والانهيار والذلة ، فتلفظهم آسفة متحسرة على أن لم تجد فيهم رجلا.

ولكن أملها يتجدد مع مشرق النور ، مع مطلع الشمس. ويأتيها كل يوم بأمل جديد ، وخيبة أمل جديدة أيضا.

و أصبحت هوايتها أن تجعل من أشباه الرجال عبيدا عند قدميها، بفتنتها وإغرائها، ثم تركلهم برجلها دون أن ينالوا منها شروى نقير .

إنها تسلب الرجال حالهم ، مامعنى ذلك ؟

لقد كان يمر عليها -وهى الكريمة المضيافة- بعض من يتسمون بالصلاح والتقوى، دون أن يكون الصلاح والتقوى قد تمكنا من قلوبهم ، فتلتقى بهم وتتحدث إليهم ، فيجدون: ذكاء ، ولباقة ، وجمالا ، وثراء عريضا ، ويجدون إغراء ، ويجدون فتنة ، فيتهافتون عليها ، وإذا بهم يقعون على صخرة منيعة لا ترام ، وإذا بهم يخرجون من عندها فى خزى ومذلة ، وفى نقص من الصلاح والتقوى ؛ لأن قلوبهم أصبحت مرتعا للهواجس والإغراء والفتنة و أصبحت هذه المرأة وكأن إقليمها به شيطان مارد هوايته الإغراء والإغواء .

وهى مع ذلك فى نفسها - مع كل هذا الطغيان والكبرياء - مسكينة تنتظر الرجل .

و جاءها الرجل ، جاءها الآمر الناهى ، جاءها " السيد " .

جاءها السيد فملك عليها جميع أقطارها ، فخضعت ، ودانت ، وذلت ، وتأهلت للاستجابة بكل ماتملك من أمل ومن طاقة ، وعرضت عليه الزواج ..." (١)

النموذج الثانى للدلالة على الأسلوب البيانى كسمة من السمات المنهجية للصياغة عند الإمام الأكبر نختاره من ترجمته للفضيل بن عياض من خلال حديثه عن توبته ، وفى ذلك يقول :

" وكان سبب توبته أنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقى الجدران إليها ، إذ سمع تاليا يتلو :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ ؟ ﴾

فلما سمعها قال: " بلى ! يارب قد آن ".

فرجع فآواه الليل إلى خربة ، فإذا بها سابلة ، فقال بعضهم : نرتحل ، وقال بعضهم : حتى نصبح ؛ فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا ..

قال :ففكرت ، فقلت : أنا أسعى أسعى بالليل فى المعاصى ، وقوم من المسلمين يخافوننى هاهنا ، وما أرى الله سائقى إليهم إلا لأرتدع ، اللهم إنى قد تبت إليك ، وجعلت توبتى مجاورة البيت الحرام .

لقد سمع الفضيل النداء الإلهي يدوى من أعماق نفسه ، وسمعه متجاوبا مع التالى للقرآن الكريم ، بل ربما يكن هناك تالٍ ، وإنما هو

(١) د. عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوى ص ٣٠-٣٣

التطلع الكامن فى نفس الفضيل إلى حياة التقوى والفضيلة ، والطهر النفسى والوجدانى ..

وتاب الفضيل توبة خالصة لوجه الله .. ، ولكنه لم يذهب إلى مكة مباشرة ، وربما كان ذلك هيبة من البيت الحرام أن يدخله ولمّا يتأهب لدخوله بعد.

وما من شك فى أن التوبة الخالصة من كبريات المؤهلات لدخول البيت الشريف ...

بيد أن الفضيل أحب أن يذهب إلى البيت ، وهو متسلح – مع الطهر – بالتوبة، بالعلم ، إن هذا البيت قد زاد الله من تشريفه وتعظيمه حينما اقتضت حكمته – تعالى – أن يجعله مكان البعثة المحمدية حيث شهدت جدرانه محمدا – صلى الله عليه وسلم – يطوف به، ويسير حوله داعيا إلى الله وحده لاشريك له، مناديا : " لا إله إلا الله "...

وكانت هذه الكلمة تزلزل قواعد الشرك ، وتقع غصة فى قلوب المشركين ... وإن من حرمة هذا البيت – فيما يرى الفضيل – أن لا تشد إليه الرحال إلا وأنت على علم بما ينبغى أن تكون عليه فيه .. لابد إذن من العلم قبل الذهاب إليه .." (١)

و – البصمة النقدية:

تأتى هذه الخاصية كسمة بالغة الأهمية من إسمات المنهجية للصياغة عند الإمام الأكبر – رحمه الله – ؛ لأنه كثيراً بل دائماً كان يتعرض بالانتقاد لما يراه مخالفاً فى التصوف نظرياً وعملياً لقواعد ومبادئ شرع الإسلام الحنيف ، ونكتفى بإيراد بعض النماذج للدلالة على هذه السمة على النحو التالى:

قد يجعل الشيخ من البصمة النقدية مدخلا يتحرك من خلاله للدخول فى موضوعه مثلما صنع فى مقدمة ترجمته لأبى مدين الغوث عندما تحدث عن الصراع بين الخير والشر، ودور إبليس فى هذا الصراع، ثم يقول : " إن سبيل إبليس فى هذا الصراع ممهدة نوعا ما ، وذلك أنه يسير متناسقا مع الغرائز والشهوات المركوزة فى النفس التى لم تتهذب بالدين.

وما من شك فى أن نزاعاً قوياً يدور دائما بين النزعات والأهواء من جانب ، وبين دعوة الأنبياء من جانب آخر ، ويتحقق هذا النزاع – واقعيا – فى طائفتين من الناس ، هما : طلاب الدنيا ، وطلاب الآخرة.

(١) د. عبد الحليم محمود : الفضيل بن عياض ص ٧، ٨

إن الإنسان لو ترك وغرائزه لفسد المجتمع ، وما تماسك المجتمع إلا لأن الإنسان لا ينطلق مع غرائزه.

وهذا السمو بالغرائز وتوجيهها التوجيه الصحيح هو – فى صورته الصادقة – من عمل الدين ، وأثر من آثار دعوته.

وإذا كانت القوانين تعمل على الحد من الغرائز فإنها تقوم على ذلك عن طريق الرهبة التى لا يتأتى أن تستمر دون انقطاع ؛ إذ أنه بمجرد أن تتاح الفرصة لانطلاق الغرائز فى خفية عن القوانين، فإنها تنطلق : فاسدة مفسدة.

وبمجرد أن تتمكن الغرائز من هدم القانون فإنها تنطلق : طاغية مدمرة ، وكم قص التاريخ من أمثلة على هذا و ذاك من انطلاق الغرائز : مستخفية مستترة ، أو مستعلنة متبجحة.

وكم لإبليس من لحظات يقيم فيها الأفراح؛ لأنه نجح فى إقامة مجازر قامت على الظلم و الطغيان ، أو لأنه نجح فى إقامة حفلات حمراء انتهكت فيها الفضيلة، وقام فيها الرجس سائدا مسيطرا.

ولقد اتخذ إبليس – على مر العصور – أعوانا من البيئة والظروف والملابسات يكيفها حتى تتلاءم مع أهدافه. وإن من أعوانه فى العصور الحاضرة مجموعة من الوسائل فى غاية الخطورة ، إن من أعوانه السينما بهذه الأفلام الجنسية التى تثير الغرائز ، وتنتهك الفضيلة ، ويروج اليهود لهذه الأفلام ، وينتجونها ، ويذيعونها من أجل إفساد شباب العالم ، ولقد وصل الأمر ببعض الأفلام أن ظهرت فيها النساء عاريات تماما."(١)

ثم يستطرد الإمام الأكبر فى ذكر وسائل اليهود الأخرى لإفساد العالم – فيما عدا اليهود – ليسيطروا من وراء ذلك على العالم ، أو لتكون لهم على الأقل إمبراطورية مترامية الأطراف.

والبصمة النقدية فى هذا النص تأخذ شكلاً عاماً ، لكن لدينا من النصوص التى انتقد فيها التصوف بصفة خاصة ، ومن ذلك قوله : " إن بعض الأجواء التى تنتسب إلى التصوف قد تعطى شيئاً من المنطق المزيف لأعداء التصوف ليحاولوا التقليل من شأن الاهتمام العلمى عند الصوفية .." (٢)

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ص ٩

(٢) عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوى ص ١٣

ففى هذا النص ينبه الإمام على وجود بعض المنتسبين للتصوف وهؤلاء دون المستوى العلمى اللائق ، وهم بجهلهم هذا يعطون الذريعة لمنتقدى التصوف لممارسة الانتقاد ضده وضد أتباعه على صعيد واحد ؛ ثم يسير الإمام شوطاً أبعد فنراه ينبه الصوفية إلى ضرورة تلقى العلم ، وفى ذلك يقول فى قوة وحسم تعليقاً على قول أبى مدين الغوث : " إن الله لا يعبد إلا بالعلم " ، : " إنها كلمة نعلنها فى آذان صوفية العصر الحاضر، نعلنها لمشايخ الطرق ، ونعلنها للمريدين ، ونرجو أن يكون فى لائحة مشيخة الطرق فرض حد أدنى من العلم فى كل من يولى مشيخة ، أو وكالة مشيخة ، وهذا الحد الأدنى يفرض فيه حفظ القرآن ، وحفظ مجموعة من الأحاديث ، وقراءة مجموعة من كتب الفقه والتصوف .

ولن تكون للتصوف نهضة إلا بالتأسى برسول الله – صلى الله عليه وسلم– ، والتأسى به لا يكون إلا بالعلم : بسيرته ، بأحاديثه ، بالقرآن الذى أنزل عليه ، وشعاره –صلى الله عليه وسلم– :" رب زدنى علما " .

إن الله لا يعبد إلا بالعلم ، وما كان الجاهل فى يوم من الأيام قدوة ولا مرشدا ، ولا شيخا يهدى الآخرين."[١]

وفى هذا نلاحظ أن الشيخ مزج بين البصمة النقدية وبين التوجيه والإرشاد والنصح، وقد يقوم بإنتقاد المجتمع المسلم من خلال رصد لحركة من حركاته تكون فيها مخالفة لشرع الله – تعالى – مثلما انتقد السياحة الفاجرة فى سياق حديثه عن السياحة كمرحلة هامة عند بعض شيوخ التصوف القدامى ، وفى ذلك يقول : " ... كانت السياحة فى ذلك الزمن من الأمور الجوهرية بالنسبة لرجال العلم ، وبالنسبة لرجال الطريق ، وسواء كنا بصدد هؤلاء أو أولئك فإن السياحة بالنسبة لهم إنما هى سياحة دينية يريدون بها وجه الله ، ويبتغون بها مرضاته .

أما ضرورة السياحة بالنسبة لرجال العلم فذلك أن الأقطار الإسلامية توزعت فيها الاختصاصات المتخصصة ...

... أما النوع الثانى من السياحة : فإنه كان سياحة تبتل وتحنث : إن الشخص فى أهله وذويه مشغول بهم مشغولون به ، إن أفكاره موزعة ، وإن آراءه مشتتة؛ متى يخلو إلى الله ؟ ، ومتى يكون فى جو من الانطلاق نحو الملأ الأعلى لا يحول دون ذلك مال ولا ولد ؟ متى يتأتى له طلب الحق : خالى الفكر صافى الذهن ؟

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ص ٢٤،٢٣

ولقد كان الصوفية يسيحون عبادة ، ويسيحون استزادة من أنوار قوم اقتربوا من ربهم وسبقوا فى السفر إليه ، ويسيحون استرشادا فى الطريق ، وطلبا للبركة ، ويسيحون للتأثير الروحى بالجلوس إلى أرباب المقامات العالية ، والمنازل السامية . "[١]

ثم ينتقل السياق من سياحة أولى العلم وشيوخ الطريق إلى ما يحدث فى زمنه صيفا من العائلات المسلمة فيقول دالاً على سوء صنيع هؤلاء : " وبعض الناس يسيح طلبا للملذات ، وبعضهم يسيح طلبا لأماكن مادية لم يشاهدها من قبل وبعض الناس يأخذ أجازه فى الصيف – كل صيف – ليكشف عورته على شاطئ البحر ، ويرضى بأن تكشف ابنته وزوجته عورتهما على الشاطئ أيضا تحت الأنظار التى لا تتورع عن الإثم ، ولا عن النظر الفاسق ."[٢]

وفى تشخيص صادق ، وتحليل رائع يقوم الشيخ – رحمه الله – بتلمس أسباب وعلل الفوضى الأخلاقية التى تتعرض لها المجتمعات الإسلامية فيقول : " ... وما من شك فى أن الفوضى الأخلاقية التى نعيش فيها، والانحراف فى الشباب والشيوخ الذى تعانى منه المجتمعات المعاصرة إنما مرجعه إلى المحاولات الآثمة التى يدعو إليها الملاحدة من فصل الأخلاق عن الدين ، وإذا مافصلت الأخلاق عن الدين فإنها تتعرض لآفات كثيرة منها:

١- أنها تفقد قدسيتها حيث يصبح منبعها بشرياً لا إلهياً ، وحيث تصبح بذلك رأيا لاعقيدة.

٢- تصبح جدلاً، ينكرها جملة من ينكرها : ينكرها السوفسطائيون ، وينكرها نيتشه ، وينكرها الوجوديون ، ولا يرى هؤلاء ولا أولئك للفضيلة معنى ثابتا ، ولا للخير مبادئ حقيقية.

٣- تصبح نسبية : تتقلب مع أهواء الفرد ومع نزوات المنحرفين ، ومع شهوات المبطلين.

وينتج عن ذلك كله اضطراب المجتمع ، وفساد الجماعة ، ولا يأمن الناس على دمائهم ، ولا على أموالهم ، ولا على أعراضهم ..." [٣]

---

(١) د. عبد الحليم محمود : التسترى ص ٢٦،٢٥

(٢) السابق : ص ٢٦

(٣) نفسه : ص ٦١

ز- توظيف الهوامش:

يأتى توظيف الهوامش عند الشيخ الإمام سمة رائعة من سمات الصياغة عنده ، حيث يقوم بالتعليق ، أو الإحالة ، أو الشرح والتحليل أو التعريف بالأعلام أو غير ذلك من الأغراض، والأمر المدهش فى توظيفه للهوامش أنه – أحيانا – يكتب بحوثا ضافية فيها لشرح قضية ، ونورد الآن أمثلة على هيئة عناوين للموضوعات التى وضعها فى تلك الهوامش مثلما كتب عن " تهافت منهج الفلاسفة المتكلمين " فى قضية وجود الله – تعالى – فى أحد هوامش لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري وقد استغرق ذلك هوامش سبع صفحات، بل كان الهامش فى كل منها عبارة عن الصفحة بطولها مع رسم خط فى أعلاها فوقه فراغ.(١)

وأيضاً مثلما كتب عن " المحبة " فى هوامش نفس الكتاب بنفس الكيفية حيث استغرقت ست صفحات كذلك . (٢)

ومثل اقتباسه عن العهد الجديد قصة المرأة التى تابت واهتدت على يد المسيح – عليه السلام – فى هامش الصفحة التى تحدث فيها عن فاطمة بنت برى . (٣)

ومن أغرب هوامش كتبه وأطرفها فى نفس الوقت قيامه بنقل مقال كامل من دورية خليجية عن السلطان عبد الحميد عند حديثه عن سقوط الخلافة فى تركيا وتطلع المسلمين فى كل بقاع الأرض إلى الأزهر الشريف لتكون له القيادة الشرعية والريادة الروحية للمسلمين ، فقد أعاد نشر مقال الأستاذ سعيد الأفغانى نشر فى مجلة العربى العدد ٢١٩ ، وقد استغرق هوامش اثنتي عشرة صفحة بطول الصفحة كما ألمحنا سالفا. (٤)

ح- التكرار والاستطراد:

يأتى التكرار كسمة منهجية أخرى من سمات الصياغة عند الشيخ الإمام مصحوبا بالاستطراد أو الاسترسال ، أو بدونهما ، وإنه لأمر طيب أن يعترف الإمام نفسه بهذه السمة قائلا فى كتابه " الحمد لله هذه حياتى ":

" .. إنه تاريخ لحياتى الفكرية على الخصوص .

وهو خواطر تمر فى أثناء الكتابة.

وهو محاولة لبيان بعض الزوايا من آرائى ، وكتبي الماضية .

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن من ص٩٧ إلى ص ١٠٣ الهوامش ..

(٢) السابق : من ص ١١٤ إلى ص ١١٩ الهوامش .

(٣) د. عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوى ص ٣٠،٣١الهوامش ..

(٤) د. عبد الحليم محمود : أبو البركات سيدى أحمد الدردير من ص ١٢ إلى ص ٢٣ الهوامش ..

أضعها مرة أخرى بين يدى القارئ ؛ لما لها من أهمية خاصة.

إنه قصة فكر قبل أن يكون قصة حياة .

قصة فكر حاول صاحبه أن يضل جاهداً إلى الصراط المستقيم ، وأن يشرح ما وصل إليه للناس.

وقد تعمدت الاستطراد تعمداً لأنشر هذا الرأى أو ذاك مما آمنت به، سواء أنشرته من قبل، أم لم أنشره ." (١)

فالتكرار عند الإمام كان سمة منهجية ، وهو عندما كان يقوم بالتكرار كان يتردد بين تكرار العبارات نفسها فى أكثر من مؤلف ، أو يقوم بتكرار المعانى من خلال إلباسها ثوبا لفظيا جديدا .

فتكرار العبارات ذاتها نجد له نموذجاً فى حديثه عن شيخ الأزهر الذى أورده فى مقدمة كتابه عن الإمام الدردير (٢) ثم أعاده بنصه كذلك فى كتابه عن الإمام الحفنى (٣)، ومثال آخر حديثه عن خصوصية الصوفية فى ألفاظهم وإشاراتهم وتأويلاتهم لذلك مثلما حدث فى كتابه قضية التصوف (٤) الذى اقتبس فيه صفحات بطولها من لطائف المنن (٥)، ومثلما حدث فى تقديمه لغيث المواهب العلية شرح الحكم العطائية لابن عباد (٦)، وهو تكرار لخاتمة قضية التصوف بعباراته نفسها .(٧)

أما الجانب الآخر من التكرار وهو تكرار المعانى فقد كان أروع لديه من تكرار الألفاظ حيث يقوم بتنويع الفكرة بالبسط والشرح والتحليل فى أكثر من صياغة والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى بنموذج واحد يتحدث فيه مرتين عن الصوفية فى سياقين منفصلين ورغم ذلك فالأفكار واحدة ، وهى قيام الصوفية بنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية فى القارات الأخرى، ومن ذلك قوله : " لم يقتصر الصوفية على الدعوة إلى الله فى داخل الأقطار الإسلامية ، وإنما نقلوها إلى خارج الأقطار الإسلامية: إلى آسيا وأفريقيا فى مجاهلها البعيدة، وإلى هذه البقاع التى ماكان يمكن أن يصل إليها إلا من تجرد لله تجردا كاملا .. " (٨)

---

(١) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى ص ١٠

(٢) د. عبد الحليم محمود : الإمام الدردير من ص ٧ حتى ص ١٠

(٣) د. عبد الحليم محمود : الإمام الحفنى من ص ١٣٦ إلى ص ١٤١.

(٤) د. عبد الحليم محمود : قضية التصوف من ص ٢٢٢ حتى ص ٢٢٤.

(٥) د. عبد الحليم محمود : لطائف المنن لابن عطاء الله من ص ٢٤٨ حتى ٢٥١.

(٦) د. عبد الحليم محمود : غيث المواهب العلية – مقدمة التحقيق من ص ٦ حتى ص ٢٩.

(٧) د. عبد الحليم محمود : قضية التصوف من ص ٤١٥ إلى ص ٤٣٨.

(٨) د. عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ص ١٦.

وحول نفس المعنى يقول فى سياق آخر : " لقد قام الصوفية بدورهم خير قيام : لقد اهتدى بهم الكثيرون ، وأسلمت على أيديهم أقطار بأكملها ، والإسلام فى إندونيسيا ، وفي هذه الأقطار البعيدة عن مركز الدعوة الإسلامية الأولى إنما هو من آثار الصوفية.

إن الإسلام لم ينتشر بسيف، وإنما انتشر بالدعوة بالحسنى ، وبالاقتناع ، وبالقدوة .

ولقد كان الصوفية بسمتهم الوقور، وبالنور يشرق فى وجوههم ، وبالثقة التى فرضت نفسها فيهم يمثلون الخلافة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – خير تمثيل ، واهتدى بهم من أحب الله له الهداية ، وانصرف عنهم من لم يكتب الله له السعادة ." (١)

نفس الفكرة بصياغة أخرى ، ولكن مع الإضافة – أحياناً – فقد أضاف نفى فرية انتشار الإسلام بالسيف ، كما أضاف أدوات الصوفية لنشر الدعوة الإسلامية.

٢ – المنهج موضوعاً: الميراث الصوفى:

الأمر فى التصوف يختلف عن غيره من العلوم الإنسانية الأخرى اللهم إذا استثنينا الأخلاق لاصطباغها فى وجهها الآخر بالصبغة العملية ؛ ولهذا فإن المنهج فى التصوف كما نرى يأخذ الاتجاهين معاً :

الاتجاه الشكلى.

الاتجاه الموضوعى.

فالاتجاه الشكلى الذى نعنى به : تحليل القوالب اللفظية من حيث صياغتها للوصول إلى الأدوات الرئيسة التى مورس من خلالها التعبير عن المعانى المرادة ، وهو ماقمنا به فى الصفحات السابقة.

والاتجاه الموضوعى هو : البحث فى الموضوعات الصوفية التى تعرض الإمام الأكبر – رحمه الله – لها بالدرس والعرض والكشف والإبانة .

وينضم الإتجاه الموضوعى من هذه الزاوية إلى الاتجاه الشكلى ؛ ليشكل الاثنان معاً : المنهج فى الدراسات الصوفية ، سواء أكان ذلك عند الإمام أم عند غيره ، لماذا؟

لأن دراسة التصوف لاتنتج متصوفة ! ، والقراءة أو الكتابة فيه لا تخرج صوفية ! ؛

---

(١) د. عبد الحليم محمود : سهل التسترى ص ١٥٧.

بدليل قيام المستشرقين بدراسات متعمقة فى التصوف الإسلامى ، فهل أصبحوا صوفية مسلمين ؟! ، والأكاديميون وغيرهم من المهتمين بالتصوف ليسوا صوفية ولا ينتسبون لهم !! .

ولهذا نكرر : إن المنهج فى التصوف يتضمن النظر فى قضاياه : شكلاً وموضوعا ، أو : صياغة وقضايا ، أو: لفظاً و معنى ، وهو ما ارتأيناه فى هذا البحث .

أما التطبيق فهو : السلوك الفعلى ، أو التجربة العملية التى ينطلق من خلالها الإنسان من النظر إلى العمل ، أو من البحث إلى الفعل ، أو من الدراسة إلى السلوك بالانتظام فى سلسلة السائرين فى الطريق إلى الله – تعالى – .

ونحن نتناول الآن الشطر الثانى للمنهج عند الإمام وهو الذى يرتبط بموضوعات دراساته الصوفية ، وقد تعرفنا فى المبحث السابق على قائمة بمؤلفاته فى كل فروع الدراسات الإسلامية ، ولأننا – بحمد الله وتوفيقه – اخترنا التصوف عند الشيخ – رضى الله عنه – فإننا نرى تراوح دراساته حوله بين تحقيق تراثه وترجمة رجاله ، وهو ما سنعالجه فى الصفحات الآتية :

أ- فى مجال التحقيق:

ترك علماء المسلمين الأوائل تراثاً ضخماً فى كل فروع الدراسات الإسلامية على هيئة مخطوطات توزعت فى المكتبات ودور المخطوطات فى كل أنحاء الأرض ، وقد تعرضت هذه المخطوطات لشتى العوامل الإيجابية والسلبية ، فمن العوامل الإيجابية : التحقيق والدراسات التى أقيمت حولها ونشرها مطبوعة وإعادة بعثها من جديد ، لإتاحة الفرصة للمهتمين بالدراسات الإنسانية للاطلاع عليها والإفادة منها.

أما العوامل السلبية فمنها : السلب والنهب والتخريب والإهمال ، أو القيام بدراسات مضادة حولها تشوه مضامينها ، أو تخرجها عما أعدت له مثلما صنع نفر من المستشرقين المغرضين.

والتصوف شأنه فى ذلك كشأن غيره من العلوم الإنسانية ، فقد ترك رجاله مجموعة قيمة من المخطوطات النفيسة ، منها ماتعرض للضياع أو التلف بفعل الإهمال أو سوء الحفظ أو عوامل الزمن ، ومنها ماتعرض للسرقات ، ومنها ما توفر عليه نفر من الوراقين المرتزقة الذين يتاجرون بالكلمة ، ويعملون بالنشر فقاموا بنشرها مشوهة خالية من الدراسات المتعمقة التى تعيدها من جديد للساحات المتخصصة ، أو قيام

بعض المستشرقين بنشرها من خلال منظومة فكرية فى الدراسة تعبر عن وجهة نظر غربية معاكسة للاتجاه الصوفى مصادمة للثقافة الإسلامية .

ولا يعنى ذلك : القول الفصل فى القضية ، أو الطرح الأخير لها؛ بدليل وجود قائمة من المخلصين مسلمين ومستشرقين قاموا بأداء حق العلم ، والوفاء للتصوف ورجاله وتراثه ، فبحثوا ونقبوا وحققوا كثيرا من المخطوطات باتباع قواعد التحقيق العلمى المتعارف عليها .

والإمام الأكبر – رضى الله عنه – يقف منتصب القامة مرفوع الهامة يكاد يكون على رأس هؤلاء المخلصين الذين تعاملوا مع النصوص الصوفية القديمة فى مخطوطاتها المباركة.

ولعلنا مازلنا نذكر أن الإمام الأكبر بدأ دراسته المتعمقة بالإمام المحاسبى حيث تعرف على ماكتبه ذلك الإمام ، كما تعرف على ما كتب عنه ، سواء كان ذلك من خلال : المطبوعات أو المخطوطات ، وفى مرحلة لاحقة قام بتحقيق واحد من أهم مؤلفاته ، وهو : الرعاية لحقوق الله ، ومالنا نقفز هكذا ؟.

الإمام الأكبر قام بتحقيق ونشر مجموعة من مخطوطات التراث الصوفى فى الإسلام ، وهى :

الرعاية – الصدق – اللمع – التعرف – الرسالة – المنقذ من الضلال – عوارف المعارف – الحكم – لطائف المنن – غيث المواهب العلية [1] ، وسنركز هنا على أمرين : نماذج لها ، ومنهجه فى تحقيقها .

١ – نماذج للكتب المحققة :

وهذه فكرة موجزة عنها حيث قمت بترتيبها حسب تاريخ وفاةأصحابها؛ لتعذر ترتيبها تبعا لتواريخ نشرها :

أ) الرعاية لحقوق الله تعالى :–

يعتبر كتاب الرعاية من أهم كتب الإمام المحاسبى المتوفى ٢٤٣ هـ ، يقول عنه الإمام الأكبر : " ... هو أكبر الكتب التى بين أيدينا من كتب المحاسبى ، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة ، وربما لا يوجد فيما فقد من كتبه ما هو أكبر منه ، ويقع فى حوالى أربعمائة وستين صفحة من القطع الكبير .

(١) انظر : قائمة مؤلفاته فى : شيخ الإسلام الدكتور رؤوف شلبى ص ٢٣٥ وما بعدها .

وهو – على كل حال – أهم كتبه فى نظر القدماء والمحدثين حتى لقد عُرف به ، وإذا لم يذكر أحد المؤرخين القدماء من كتب المحاسبى إلا كتابا واحدا فإنه يكون : الرعاية .

وهو بالنسبة للمحاسبى كإحياء علوم الدين بالنسبة للغزالى ، وقد حاول المحاسبى أن يشرح فيه الطريق الذى يحقق الرعاية لحقوق الله – تعالى –." [1] .

ب) الصـــــدق:–

كتاب الصدق لأبى سعيد الخراز ٢٧٩ هـ كان من الكتب التى يتوارثها الصوفية ، ويحيطونها بالكتمان ، ويضنون بها على غير أهلها ؛ لأنها ذخيرة نفيسة ، لايصلح أن تبتذل للعامة ، وكأنها لؤلؤة مكنونة لا يستساغ أن تقتحمها أعين الدهماء.

والواقع : أنه مختصر فى غاية النفاسة يرسم – فى دقة ووضوح – الطريق إلى الله – تعالى – [2].

جـ) المنقذ من الضلال:–

كتاب المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ٥٠٥هـ من الكتب التى نالت على مر العصور شهرة تكاد تكون منقطعة النظير .

لقد طبع باللغة العربية عدة طبعات : كل طبعة منها لها سمتها الخاص ، وترجم إلى عدة لغات ، وفى بعض اللغات ترجم مرتين، ومازال الاحتمال فى ترجمته أكثر من مرة فى كثير من اللغات موجودا.

أما السر فى ذلك فهو أن الإمام الغزالى يحكى تجربة شخصية فى موضوع أثار ويثير الكثير من الجدل.

وهو موضوع يثير فى كل عصر التساؤل والتطلع والطموح والرغبة فى تنسم نسائم عالم الغيب . [3]

د) لطائف المنـــــن:–

وهو لابن عطاء الله السكندرى ٧٠٩ هـ ، وهذا الكتاب للإمام الأكبر قصة معه يقصها فى مقدمة تحقيقه له على النحو التالى : " وعهدى بكتاب " لطائف المنن " عهد قديم : فقد قرأته قراءة متأنية حينما شرعت فى الإعداد للكتابة عن الإمام أبى الحسن الشاذلى – رضى الله عنه – ،

(١) د. عبد الحليم محمود : مقدمة تحقيق كتاب الرعاية للمحاسبى ص ١٤

(٢) د. عبد الحليم محمود : مقدمة تحقيق كتاب الصدق لأبى سعيد الخراز ص ١٩

(٣) د. رؤوف شلبى : شيخ الإسلام عبد الحليم محمود ص ٧٩

ثم قرأته مرة ثانية حينما شرعت فى الإعداد للكتابة عن الإمام أبى العباس المرسى – رضى الله عنه – ، ورجعت إليه أكثر من مرة بعد ذلك لظروف ومناسبات عدة ، منها مثلا : حينما كتبت كلمات عن الإمام المؤلف للكتاب : ابن عطاء الله السكندرى – رضى الله عنه – عند نشر شرح الحكم للإمام ابن عبّاد ، وفى كل مرة قرأته أورجعت إليه كنت أتمنى لو خرج هذا الكتاب إلى الناس فى طبعة ميسرة : تحقيقا وتعليقا .

والأمور مرهونة بأوقاتها " وما تشاؤون إلا أن يشاء الله " .

وتمضى السنون ، والكتاب دائماً فى متناول يدى ، أقلب صفحاته الفينة بعد الفينة ، ثم أضعه فى مكانه حتى شاء الله أن يكون ظهور الكتاب عند افتتاح مسجد ابن عطاء الله السكندرى." [١]

أما عن أهمية الكتاب فإلى جوار كونه تحدثاً بنعم الله تعالى على صاحبه ، فإنه تعريف بشيخه الإمام أبى العباس المرسى وشيخ شيخه أبى الحسن الشاذلى ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الإمام الأكبر يلفت الأنظار إلى أهمية لطائف المنن من خلال المنهج العام الذى يحكم عطاء ابن عطاء الله فى التصوف الإسلامى ، وفى ذلك يقول : " إننا حين نقدم هذا الكتاب فإنما نقدم كتابا من النوع النفيس الذى يقرؤه القارئ فينعم بأسلوب جميل ، ويستفيد علما نافعا ، وهكذا كتب ابن عطاء الله السكندرى : إنها فى أساليبها تتسم بالفصاحة ، وفى معانيها تتسم بالنفاسة ، وهى بأسلوبها ومعانيها تنبثق عنها روحانية هى سمة مؤلفات أولياء الله .

وإذا كان أولياء الله هم الذين إذا رؤوا ذكر الله فإن مؤلفاتهم حينما تقرأ فإنها تهدى إلى الله ، وتقود إليه – سبحانه – ." [٢]

هـ) الحكم:

وكتاب الحكم هو لابن عطاء الله السكندرى أيضاً ، يقول عنه الإمام الأكبر : " أسلوب ابن عطاء الله قد بلغ القمة فى كتابه الحكم ، حتى ليقول الشيخ محمد عبده : " كاد كتاب الحكم يكون قرآنا " .

وأسلوبه فى بقية كتبه هو من الأساليب الممتازة فى البلاغة : كلامه جواهر ، وجواهره لآلئ ، ولآلئه ماس ، وماسه من النوع النادر ." [٣]

---

(١) د. عبد الحليم محمود : مقدمة تحقيق لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى ص٢١،٢٢

(٢) السابق : ص ٢٢

(٣) نفسه : ص ٢٣

كما يقول عنه فى سياق آخر : " وكتاب الحكم مجموعة من الحكم صُفيت من ناحية الأسلوب والصياغة فكانت مثلاً عالياً للأدب الرفيع يضع ابن عطاء الله فى مصاف أعلام الأدب الفصيح البليغ.

وصفيت من ناحية الفكرة ، فكانت مثلاً عالياً للفكر الصوفى أو للنور الصوفى أو لمعراج الروح فى مستوى يضع ابن عطاء الله فى الصف الأول من صفوف المقربين . "[١]

و) غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية:

وهذا الكتاب لأبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن عباد النفرى الرندى ٧٩٢ هـ شرح لكتاب الحكم المشار إليه فى الفقرة السابقة ، ولمعرفة أهمية هذا الشرح نقتبس سطورا لابن عباد فى مقدمة شرحه يسلط فيها الأضواء على قيمة كتاب الحكم ، ودافعه فى القيام بشرحه ، وفى ذلك يقول : " كتاب الحكم من أفضل ماصنف فى علم التوحيد ، وأجل ما اعتمده بالتفهم والتحفظ كل سالك ومريد ، لكونه صغير الجرم ، عظيم العلم ، ذا عبارات رائقة ، ومعان حسنة فائقة قصد فيها إلى إيضاح طريق العارفين والموحدين ، وإبانة مناهج السالكين والمتجردين ، أخذنا فى وضع تنبيه يكون كالشرح لبعض معانيه الظاهرة ، وكالكشف للمعة يسيرة من أنواره الباهرة.

ولا قدرة لنا على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب ، وماتضمنه من لباب اللباب ؛ لأن كلام الأولياء والعلماء بالله منطو على أسرار مصونة ، وجواهر حكم مكنونة، لايكشفها إلا هم ، ولا تتبين حقائقها إلا بالتلقى عنهم ."[٢]

٢- منهج الإمام الأكبر فى تحقيق المخطوطات :

اعتمد الإمام الأكبر – رحمه الله – على القواعد– المتعارف عليها حديثاً ، والتى أشار إليها ، وعرضها المرحوم الأستاذ عبد السلام هارون فى كتابه الطيب " تحقيق النصوص ونشرها " ، كما أشار إليها غيره ، ونحن بدورنا نشير – بإيجاز – إلى أهم الخطوات التى مارسها الإمام فى تحقيقه للكتب التراثية اعتمادا على تلك القواعد :

---

(١) د. عبد الحليم محمود : مقدمة تحقيق غيث المواهب العلية لابن عباد ص ٣٦.

(٢) ابن عباد النفرى : غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية تحقيق د. عبد الحليم محمود ص ٤٧،٤٨

أ) أساس الاختيار :

علمنا فيما سبق أهمية الكتب التى اختارها الإمام الأكبر للدراسة والتحقيق، ونزيد الأمر إيضاحاً فنقول وبالله التوفيق :

إن الكتب التى اختارها الإمام لتحقيقها ودراستها من كتب التراث الصوفى فى الإسلام تغطى كل موضوعات التصوف الإسلامى : نظريا وعمليا ، وهذا أحد الأسباب الرئيسة التى دفعته إلى تحقيقها ونشرها .

ب) الاعتماد على المخطوطات :

كان الإمام الأكبر فى الغالب الأعم يعتمد على المخطوطات كلما همَّ بنشر كتاب من كتب التصوف القديمة ، إلا أنه كان يستأنس بالمطبوعات الحديثة لتلك الكتب ، أو يعتمد عليها إذا تعذر عليه الحصول على نسخ من مخطوطاتها .

ويشير الإمام إلى تعامله مع واعتماده على المخطوطات بقوله عن غيث المواهب العلية لابن عباد : " وضع بعض النسّاخ لهذا الشرح اسم : "كتاب التنبيه " ، وذلك كما جاء فى المخطوطة رقم ٨٩٠ بدار الكتب المصرية ، وهى بخط الناسخ صفى الدين الحلبى ، والذى فرغ من نسخها فى شوال سنة ١٠١٣ هـ .

كما أن بعض النسّاخ أطلق عنواناً آخر على هذا الشرح فأسماه : " غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية " ، وذلك فى المخطوطة رقم ١٠٦٩ ، وهى بخط الناسخ السيد عبد الكريم سنة ١١١٩ هـ .

ولقد رجعنا إلى هاتين المخطوطتين وغيرهما من المخطوطات الكثيرة التى فى المكتبة الأزهرية ، وفى دار الكتب من أجل تحقيق هذا الكتاب النفيس ." (١)

جـ) الدراسة :

كان الإمام يقوم بدراسات عميقة ومتخصصة حول الكتاب الذى يريد نشره بصفة خاصة ، أو يقدم مقدمات مستفيضة حول التصوف الإسلامى بصفة عامة مثلما صنع مع كتاب المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ، وكتاب غيث المواهب العلية لابن عبّاد .

(١) ابن عباد : غيث المواهب العلية تحقيق د. عبد الحليم محمود هامش ص ٤٨

د) التعليق :

كان الإمام الأكبر يقوم بالتعليق من خلال شرح فكرة غامضة ، أو تفصيل قول أشار إليه المؤلف فى المتن إشارة عابرة ، ومن هنا كانت هوامش الكتب المحققة تحفل وتمتلئ بالتعليقات المفيدة ، وقد أشرنا فى المبحث السابق إلى توظيف الهوامش كسمة منهجية وأداة من أدوات الصياغة عنده .

هـ) العزْو والإحالة :

كما كان الإمام يعتمد فى نشراته على العزْو والإحالة ، فيقوم بالتنبيه على مواقع الآيات فى القرآن الكريم ، وتخريج الأحاديث الشريفة، والتعريف بالمؤلفات ، والبلاد والأعلام ... وغيرها ، بالإضافة للإحالة إلى الكتب المذكورة فى المتن ، أو تلك التى اعتمد عليها فى تحقيقه .

ب- فى مجال الترجمة :

كتبت فى مقدمة رسالتى للدكتوراه السطور الآتية : " لقد أكرمنى الله – تعالى – بمحبة الصالحين ، فنشأت عليها ، وطفقت منذ طفولتى أنظر إلى علماء هذه الأمة العظيمة ، وأوليائها نظرة حب خالص، وأنعمت النظر فى اهتمامات روادنا الكبار بعظمائنا الأقدمين ، حيث اهتم هؤلاء الرواد بأولئك السادة ، وبدأوا ينفضون غبار السنين عن تراثهم التليد ، ويقدمونهم للمعاصرين من جديد فى لغة ميسورة ، وأسلوب يناسب روح العصر وثقافته ، وقد كان للتصوف ورجاله حظ طيب من هذه الاهتمامات ، حيث نلمح محاولات باكرة فى البحث الصوفى ، تمخضت عنها مؤلفات جادة عالية القيمة أماطت اللثام عن بعض متصوفة المسلمين الأفذاذ ، وارتبطت أسماء بعض الباحثين المعاصرين بأسماء من كشفوا النقاب عنهم من رجال التصوف :

فقد اقترن اسم الإمام الأكبر المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود بالحارث المحاسبى ،

واسم الدكتور أبو الوفا التفتازانى بابن عطاء الله السكندرى،

واسم الدكتور عبد الفتاح بركة بالحكيم الترمذى ،

واسم الدكتور ابراهيم بسيونى بالقشيرى ،

واسم الدكتور محمد أحمد مصطفى بابن عربى ...

ومن هنا أردت – بكل تواضع – أن أحذو حذو هؤلاء ، العلماء الأفاضل، وأحاول – قدر استطاعتي –التعريف بأحد أعلام أمتنا الخالدة ، فوقع اختياري على الإمام الجليل أبي عبد الرحمن السلمي ." [1]

لعلي عندما وضعت اسم الإمام الأكبر – رضي الله عنه – كأول نموذج لهؤلاء السادة الرواد الذين اقتديت بهم ، واقتفيت آثارهم لم يخطر ببالي أنني سأكتب عنه في يوم ما ، بيد أن الذي أود الإشارة إليه في هذا السياق أنه – عليه رحمة الله – لم يقتصر على المحاسبي ، بل ترجم لعدد من شيوخ التصوف الآخرين على مدار العصور ، فقد ترجم للسادة الأخيار:

ابراهيم بن أدهم – عبد الله بن المبارك – الفضيل بن عياض – بشر الحافي – الحارث المحاسبي – أبو يزيد البسطامي – سهل التستري – أبو بكر الشبلي – أبو مدين الغوث – عبد السلام بن بشيش – أبو الحسن الشاذلي – السيد أحمد البدوي – أبو العباس المرسي – ذو النون المصري – شمس الدين الحفني – أحمد الدردير – عبد الواحد يحيى – رضي الله عنهم أجمعين – .

واللافت للنظر أنه لم يترجم لبعض ذوي الشهرة في الميدان الصوفي مثل : الإمام أبو حامد الغزالي ، أو الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي رغم كثرة حديثه عنهما ، واستشهاده بأقوالهما ، وقد يرجع ذلك إلى اكتفائه بذيوع الصيت لكل منهما ، وكثرة الدراسات التي أعدت عنهما ، وانتشار مؤلفاتهما ، وتداولهما بين المهتمين بالدراسات الصوفية .

ونحن بصدد التعرف على منهجه في تراجمه سنقوم بالتركيز على هذه الأفكار : اختيار الشخصيات ، عناصر الترجمة – اقتحام المشكلات وحلها .

١- اختيار الشخصيات :

كان اختيار الشخصيات التي ترجم لها خاضعاً لعدة عوامل ، ومن أهمها:

أ- القواسم المشتركة:

وأعني بذلك الصفات الأخلاقية ، والسمات الوجدانية ، والأشواق الروحية التي تحلى بها الإمام الأكبر وكان لها حضور واضح في شخصيته المباركة ، وكانت امتدادا لما يناظرها مما اتسم به هؤلاء الأعلام .

---

(١) د. محمد صلاح عبده : جهود أبي عبد الرحمن السلمي ومنهجه في التصوف ص ب، جـ رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين – القاهرة سنة ١٩٩١م.

ب- ندرة المكتوب عنهم :

التفت الإمام إلى المكتبة الصوفية فلم يجد فيها تعريفاً بهؤلاء الشيوخ في مؤلفات مستقلة ، بل كان الموجود عنهم إما سطوراً في كتب الطبقات ، أو بضعة أوراق لا تعطي تصوراً شافياً ، ولا تشفي غليلاً ، أو مخطوطاً يتعذر الاطلاع عليه .

ج- عدم قيام بعضهم بالتأليف في التصوف :

بعض هؤلاء السادة لم تكن لهم مؤلفات ، بل كان ميراثهم أقوالاً متناثرة لايمكن استخلاص مذاهبهم الصوفية منها إلا بعد جهد جهيد، مثل : أبي الحسن الشاذلي ، وأبي العباس المرسي ، والسيد أحمد البدوي .

د- تنوع مدارسهم :

تراوحت مناهج هؤلاء السادة في الأخذ بأيدي الناس إلى طريق الله – تعالى – بين الاتجاه النفسي ، والاتجاه القلبي ، والاتجاه العملي والسلوكي .

هـ- آثارهم وتأثيرهم :

كان لهؤلاء السادة تلاميذ أوفياء ، صاروا شيوخاً فيما بعد مثل : أبي العباس المرسي الذي كان تلميذاً لأبي الحسن الشاذلي الذي كان تلميذاً لعبد السلام بن بشيش ، وكان لكل منهم تأثيره الواضح في أتباعه ، ومريديه ، بل في مجتمعه الذي عاش فيه ، وأخص من ذلك : جهادهم في سبيل الله ، ونشرهم الإسلام في ربوع الأرض بالحكمة والموعظة الحسنة، والقدوة الطيبة .

و- نشر الوعي الصوفي :

كان الإمام الأكبر بعلمه وسلوكه محباً للتصوف الإسلامي باعتباره – كما أشرنا – الصورة المشرقة للإسلام عملياً وواقعياً ؛ ولهذا مارس الدعوة إلى الله – تعالى – عن طريق الاعتماد على عدة وسائل ، ومنها :

التعريف بهؤلاء الأعلام بهدف نشر الوعي الإسلامي .

ز – الدفاع عن التصوف :

لم يتعرض علم من العلوم الإسلامية لبعض ماتعرض له التصوف الإسلامي من هجوم عنيف على وجوده ومصداقيته ومرجعيته ورجاله ، ولهذا انبرى الإمام للدفاع عن ذلك العلم من خلال الترجمة لشيوخه ، ودرء التهم الموجهة إليهم ، واتخاذ المواقف الدفاعية والتدابير التي من شأنها إزالة ما تراكم على تاريخهم وتراثهم من شبهات لا قيمة لها ، ولا مصداقية .

٢- عناصر الترجمة :-

بعد أن تعرفنا على مايمكن اعتماده كدوافع لاختيار هؤلاء السادة من شيوخ التصوف من قبل الإمام الأكبر للترجمة لهم ، والتعريف بهم تجدر الإشارة إلى أهم ما لفت نظره فى حياة كل منهم ، ومن ثم قيامه بالتركيز عليه ، وإبرازه لقرائه بصورة واضحة ، وذلك ما سنتعرف عليه فى السطور الآتية :

الأسلوب المتعارف عليه فى الكتابة عن الرجال هو التركيز على نقاط موحدة مثل : الزمان والمكان ، والجو العام الذى عاشت فيه الشخصيات ، والشيوخ والتلاميذ ، والتأثر والتأثير ، والمؤلفات ، وغير ذلك من محددات الشخصية والأطر التى تحكم سيرة حياتها أو سيرتها الذاتية ، مما يمكن أن نطلق عليه عناصر الترجمة .

فما هى أهم عناصر الترجمة التى اهتم بها الإمام الأكبر للتعريف بمن ترجم لهم وعرّف بهم من خلال كتبه عنهم ؟.

سنتجاوز المحطات التقليدية فى حياة هؤلاء الشيوخ مثل : الميلاد والوفاة ، والبيئة، وما شابه ذلك من جزئيات لقلة فائدتها فى سياقنا هذا ، وسنقوم بالتركيز على أهم عناصر الترجمة من وجهة نظرنا لما كان لها من تأثير واضح ، ومردود إيجابى فى حياتهم ، وسنكتفى بضرب بعض الأمثلة للدلالة على كل عنصر منها دون القيام بإجراء مسح شامل على الجميع .

أ) البدايات :

الطريق إلى الله – تعالى – عند الصوفية له أركان كالشيخ والمريد، وقواعد كالبيعة والذكر ، ومنهج : نظرى كالعلم ، وعملى كالأكل الحلال، والصمت ، والسهر ، والعبادة : فرضا ونفلا .. إلى غير ذلك ، وأهم خطوة فى السلوك هى : الخطوة الأولى ، خطوة البداية ، نقطة الانطلاق ، وقد اهتم الإمام الأكبر بالبدايات السلوكية المتميزة لبعض هؤلاء الشيوخ ، وكان فى اهتمامه هذا شبيها بمسلك القشيرى فى رسالته الذى يقول عنه أبو العباس المرسى : " إنما بدأ القشيرى فى رسالته بالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ، لأنهما كانا قد تقدم لهما زمن قطيعة ، فلما أقبلا أقبل الله عليهما ، فبدأ بذكرهما بسطا لرجاء المريدين الذين كانت تقدمت منهم الزلات والمخالفات ، وليعلم أن فضل الله ليس بمعلل بعمل ، ولو أنه بدأ بالجنيد ، وسهل بن عبد الله ، وعتبة الغلام

وأمثالهم ممن نشأ فى طريق الله ، لربما قال قائل : من يدرك هؤلاء ؟ ، إن هؤلاء لم يسبق لهم زلات ولا مخالفات ." (١)

وقبل أن نستطرد فى شرح هذا العنصر الخاص بالبدايات السلوكية نشير إلى هذا النص المنسوب إلى أبى العباس المرسى ، وهو لم تكن له مؤلفات كما نوهنا سلفا بل قام بنقله تلميذه الإمام ابن عطاء الله السكندرى فى مروياته عنه ، وهذا يذكرنا بأحد العوامل السالفة التى دفعت الإمام للترجمة لهؤلاء الشيوخ .

أما بداية إبراهيم بن أدهم فنسوقها على لسانه هو إذ يقول : " كان أبى من أهل بلخ، وكان من ملوك خراسان ، كان من المياسير ...

وحبب إلينا الصيد فخرجت راكباً فرس ، وكلبى معى .. فبينما أما كذلك ثار أرنب أو ثعلب ، فحركت فرسى .. فسمعت نداء من ورائى :

ليس لذا خلقت ، ولا بذا أمرت .

فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحداً .. ، فقلت : لعن الله إبليس .. ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء أجهر من ذلك :

ياإبراهيم ! ليس لذا خلقت ، ولا بذا أمرت .

فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلا أرى أحداً ، فقلت :

لعن الله إبليس ، ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء من قربوس سرجى :

يا إبراهيم ! ما لذا خلقت ، ولا بذا أمرت .

فوقفت فقلت : أنبهت ، أنبهت .. جاءنى نذير من رب العالمين ، والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ماعصمنى ربى ، فرجعت إلى أهلى ، فخليت عن فرسى ، ثم جئت إلى راع لأبى فأخذت منه جبة وكساء ، وألقيت ثيابى إليه ...." (٢).

وأما بداية الفضيل بن عياض فقد سبق لنا إيرادها ضمن أدوات الصياغة فى المبحث السابق فى السمة المنهجية التى تناولنا فيها الأسلوب الأدبى المشرق عند الإمام الأكبر.

وبداية ثالثة كان فارسها بشر الحافى الذى يقول عنه صاحب الحلية : " وكان أسفل قدمه أسود من التراب من كثرة المشى حافيا ،

---

(١) د. عبد الحليم محمود : قضية التصوف ص ٢٦١ ، ٢٦٢

(٢) د. عبد الحليم محمود : إبراهيم بن أدهم ص ٢٥، ٢٦

وسبب حفائه أنه كان فى ابتدائه فى لهو ولعب ، فجلس مع رفقائه لذلك ، فدق رجل بابه ، فخرجت الجارية ، فقال :

صاحب هذه الدار حر أم عبد ؟

قالت : حر.

قال: صدقت ، ولو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو ، ثم ولّى.

فدخلت الجارية فأخبرته ، فخرج يعدو خلفه حافياً حتى أدركه ، وقال : أعد الكلام، فأعاده ، فهام على وجهه حافياً حتى عرف بالحفاء.

فقيل له : لم لا تلبس نعلاً ؟

فقال : ماصالحنى مولاى إلا وأنا حاف ، فلا أزول عن هذه الحالة." (١)

ب – الـــــرؤى :

كان للرؤى حضور واضح فى حياة الصوفية ، وكان لها حضور واضح كعنصر مهم من عناصر الترجمة عند الإمام الأكبر ، ومن ذلك ماروى " أن إبراهيم بن أدهم رأى فى المنام كأن جبريل – عليه السلام – قد نزل إلى الأرض ، فقال له : لم نزلت إلى الأرض ؟ ، قال لأكتب المجيد ، قال : مثل من ؟ قال : مثل مالك بن دينار ، وثابت البنانى ، وأيوب السختيانى ، وعدّ جماعات ، قال : أنا منهم؟ ، قال: لا ، فقلت : فإذا كتبتهم فاكتب تحتهم محب للمحبين ، قال : فنزل الوحى : اكتبه أولهم.. "(٢)

وقد سلط الإمام الأكبر الضوء على الرؤى ودورها فى حياة الأولياء فى سياق حديثه عن السيد أحمد البدوى ، وفى ذلك يقول : " ... لقد أتم السيد البدوى الخطوات العادية فى طريق القوم : أخذ العهد والخلوة والاستقامة .

ثم كانت الرؤى :الآمرة ، المحتمة ، الموجهة ، المرشدة .

واستيقظ أحمد ذات يوم يعلن أنه رأى فيما يراه النائم من يأمره بالسفر إلى العراق، وأولياء الله لايتصرفون بأنفسهم ، إنهم وقد أسلموا نفوسهم لله لايتصرفون إلا بتوجيه منه – سبحانه – ، ولا يعملون إلا بإذن

(١) د. عبد الحليم محمود : بشر الحافى ص ١٥

(٢) د. عبد الحليم محمود : إبراهيم بن أدهم ص ١٠٢

الله – تعالى – ، وقد يكون هذا التوجيه ، أو هذا الإذن رؤيا يراها الولى ، أو يكون إلهاماً ، أو يكون انشراح صدر بسبب الاستخارة يجريها الولى .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (فصلت ٣٠:٣٢)

فالملائكة تتحدث مع أولياء الله بنص القرآن .

والإمام الغزالى يبين ذلك عن تجربة فيقول :

" ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ، ويقتبسون فوائد . "

والرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ."(١)

وممن قص بعض مرائيه الإمام الشعرانى الذى رأى فيما يرى النائم ملكا يقول له : اسمع منى هذا الكلام الجامع لكل كلام .

يقول الشعرانى : فقلت له : نعم.

فقال : ليس لعبد أن يشغل قلبه بالاختيار لفعل شئ أو تركه فى المستقبل ، وإنما عليه أن يعطى ما أبرزه الحق – تعالى – على يديه من الأعمال حقه ، فإن كان طاعة حمد الله – تعالى – عليها ، واستغفره من تقصيره فيها .

وإن كان معصية استغفر الله من حيث ارتكابه ما يخالف أمر الله – تعالى – وإن كان غفلة أو سهواً فعل ما هو اللائق بمقامه .

وقد قربنا لك طريق الأدب معنا فى كل ما نجريه على يديك والسلام .

فما سررت عمرى كله مثل سرورى بهذا الخطاب ، ولم أر لذة تعادل سماع كلام ذلك الملك ، فالحمد لله رب العالمين .. (٢)

(١) د. عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوى ص ٥٨،٥٩

(٢) السابق : ص ٧٣

ج) التأصيل والمرجعية :

وأعنى بهذا العنصر من عناصر الترجمة عند الإمام الأكبر قيامه برصد صنيع الشيوخ من دوام رد التصوف الإسلامي بصفة عامة والطريق إلى الله – تعالى – بصفة خاصة إلى جذوره الأولى الضاربة فى صدر الإسلام ، النابتة عن مبادئه ، المبنية على أصلية الأصيلين : القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وقد تابع الشيخ الإمام الغزالي أولئك الشيوخ فى هذه القضية الهامة ، ومن أقواله الدالة على ذلك : " .. وقد حفظ الجنيد القرآن ، وفهمه ، ودرسه ، وتدبره ، وقيّد الحديث ، واستوعبه قدر الاستطاعة لفظا ومعنى ، رواية ودراية .

وذلك أنه يرى – كما يرى غيره من الصوفية – أن ذلك هو الأساس ، ولا بد من إحكام الأساس .

وإحكام هذا الأساس يجعل من أحكمه فقيهاً ، ويجعله محدثاً ، ويجعله مفسرا ، ويجعله من علماء التوحيد .

ولقد أحكم الجنيد هذا الأساس:

أحكمه تعبداً ، وأحكمه استنارة ، ،احكمه لأنه صوفى ، وقال : " من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لايقتدى به فى هذا الشأن ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . " (١)

ومن الأقوال الدالة على التأصيل والمرجعية ما نقله الإمام عن أبى يزيد البسطامى حيث يقول : " لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة "

وما نقله عن أبى الحسن الشاذلى فى قوله : " من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو بدعى " .

وما نقله عن الجنيد حيث يقول : " الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، واتبع سنته ، ولزم طريقته . " (٢)

د) أكل الحلال :

اهتم الإمام الأكبر فى معظم تراجمه بأكل الحلال، ونكتفى بإيراد نموذج واحد للدلالة على هذا العنصر من عناصر الترجمة حيث يقول : "

(١) نفسه : ص ١٤

(٢) د. عبد الحليم محمود : شمس الدين الحنفى ص ١٠،٩

لقد اهتم سهل اهتماماً كبيراً بأكل الحلال ، وذلك لما لهذا الجانب من مكانة كبرى فى الاتجاه إلى الله – سبحانه وتعالى – ، وفى كسب الحلال .

ولبيان هذه المنزلة نذكر الحديثين التاليين عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

- روى ابن مردويه بسنده عن ابن عباس قال :

" تليتْ هذه الآية عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " يَا أَيُهَا النَّاسُ كلوا ممَّا فى الأَرْض حَلالاً طَيِبَاً " ، فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يارسول الله ! ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال : " يا سعد ! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمدٍ بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به "

- وروى أحمد ومسلم بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

"أيها الناس ! إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين :

" يَا أَيُهَا الرُسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِبَاتِ واعْمَلُوا صَالِحاً إِنِى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيِمٌ ".

وقال : " يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون"، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء : يارب يارب! ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك " (١)

ولسهل بن عبد الله قول له دلالته فى هذا الأمر يقول فيه : " من أكل الحرام عصت جوارحه ، شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم " ..

ويعلق الإمام الأكبر على ذلك قائلاً : ومن عصت جوارحه ، ومن غلبته جوارحه فليس له فى طريق الله نصيب .

ولا مناص عن الابتعاد عن أكل الحرام حتى لا تتمرد الجوارح ، وحتى لايكون ارتكاب للإثم ، وأكل الحرام نفسه إثم باعث على الإثم.

وقد يقول قائل : إن هذه المسألة أمرها هيّن ، فالناس عادة يأكلون الحلال من : مرتباتهم ، أو من : مزارعهم ، أو من : مهنهم ! ..

(١) د. عبد الحليم محمود : سهل التسترى ص ٥٥ ، ٥٦

ويعلق الإمام فى محاولة لتحليل وجهة نظره ، وكأنه يقصد نفسه : بيد أن الصوفية لا ينظرون إلى الأمور هذه النظرة السهلة .

إنهم يتحرجون ويتساءلون : أدخل هذا المال ربا ؟ ، أأدى الإنسان فيه حق الله من الزكاة؟ أأدى الإنسان فيه حق الله من ناحية الأمانة فى العمل ، ومن ناحية إتقانه : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ؟ ، وإن من أخذ الأجر حاسبه الله على العمل ، فهل كان العمل مجزياً بالنسبة للأجر ؟.

هل دخل هذا المال مال من الأيتام ؟

وأسئلة كثيرة من هذا النمط هى مظهر من مظاهر الحرص على أن يعيش فى الجو الحلال الصافى [١] .

وفى لهجة صادقة يتحدث عن أوقاف الأزهر ، وعن رأيه فيمن استولى عليها ، فيقول : " أخذ الحاكمون فى عصر دولة محمد على يحتالون حتى أمكنهم بالمكر والخديعة أن يستولوا على أوقاف الأزهر ، ويعطوه مالا من خزينة الدولة ، ويضيق عليه فيه سنوياً، ولا تساير الدولة نمو الأزهر وتطوره ، وأصبح الأزهر فى ضيق يزداد ضيقا كل عام .

أما أوقاف الأزهر التى أخذت منه بالمكر والخديعة فإنها شرعاً مازالت له ؛ لأن أوقاف البر لا تؤخذ هكذا ، ولا يغيّر مصرفها ، وكل هؤلاء الذين استولوا عليها إنما يأكلون حراما ، ومن يأكل حراما لا يقبل الله منه عملاً ، ولا يتقبل الله ممن يأكل أوقاف الأزهر - ولو كان قد اشتراها - دعاء !!" [٢]

هـ - القراءات :

كانت للصوفية قراءات متعددة ، أعلاها كتاب الله ثم سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ثم إحكام العلم بالقراءة فى كتبه من تفسير وفقه وتصوف وغيرها ، فلقد قرأ أبو مدين الغوث كتاب الرعاية للمحاسبى ، وإحياء علوم الدين للغزالى ، والرسالة القشيرية [٣] ، ويذكر الإمام الأكبر فى مقدمة تحقيق كتاب لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى أن الشاذلى كانت له كتب مفضلة يداوم على دراستها لتلاميذه ومريديه ، ومنها : إحياء علوم الدين للغزالى ، وقوت القلوب لأبى طالب المكى ، والرسالة

(١) السابق ص ٤٨

(٢) د. عبد الحليم محمود : سيدى أحمد الدردير ص ٨،٩

(٣) د. عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ص ٣٤ ، وص ٣٦

القشيرية، والشفاء للقاضى عياض ، وختم الأولياء للترمذى ... وغيرها[١]، وتلميذه أبو العباس المرسى كان كذلك .

نكتفى بهذا القدر حول هذا العنصر لأسبقية حديثنا فى المبحث الأول عن القراءة عند الإمام وعند غيره من شيوخ الصوفية الأقدمين.

و- الرحلات:

اهتم الإمام الأكبر بتنقلات الصوفية الذين قام بالترجمة لهم ، وكان يسميها أحياناً : الرحلات ، وأحياناً : السياحة ، وأيّا ما كان الأمر فلقد لفت الأنظار إلى هذا العنصر ، ونختار إبراهيم بن أدهم نموذجاً دالاً ؛ لأن الإمام تحدث من خلاله عن السياحة ، وقام - كعادته - بالتماس الأصل الشرعى لها ، وفى ذلك يقول عنه : " لقد كان شيخنا - رضوان الله عليه - كثير السياحة ، لقد كان ينتقل من مكان إلى مكان ... كان ينتقل من أجل طلب الرزق الحلال ، وكان ينتقل من أجل طلب العلم ، وكان ينتقل متعبداً، وكان ينتقل ابتعاداً عن الشهرة ، أى : ينتقل من مكان اشتهر فيه إلى مكان آخر لا يُعْرف فيه .

والسياحة كانت دائما من منهج الصوفية لكل هذه الأغراض التى ذكرناها ، وكلمة السياحة إذا كانت قد مسخت الآن ، وأصبحت لا تكاد تدل إلا على العبث والاستهتار فإنها فى الجو الإسلامى لها معناها الشريف الصادق .

إن الله - سبحانه وتعالى - يصف بها المؤمنين الصادقين فيما وصفهم به من كريم الصفات ، فيقول :

﴿ التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرونَ بِالمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ ، وَ الحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ ، وَبَشِّرِ المُؤمِنِيْنَ ﴾ (التوبة ١١٢).

ويصف بها المؤمنات الصادقات اللائى يمثلن المثل الأعلى لزوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيقول : " عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا " (التحريم ٥).

وكانت السياحة تعنى أحد أمرين :

كانت تعنى السياحة فى طلب العلم أو تعبداً " [٢]

(١) د. عبد الحليم محمود : مقدمة تحقيق لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى ص ١٥ وما بعدها

(٢) د. عبد الحليم محمود : *إبراهيم بن أدهم ص ٣٤ ، ٣٥

ويفصل القول لشرح الأمر الثانى ، وهو السياحة للتعبد فى معرض حديثه عن سياحات أبى الحسن الشاذلى الذى يقول عنه : " لقد ساح ليخلو إلى الله ، وساح لتصفو نفسه ، وساح ليتمكن من التركيز والتجمع فيلقى بنفسه كلية ، وبكيانه كله فى الرحاب الإلهي مستسلما مسلما، عبدا أسلم القيادات كلها :

جسماً ونفساً وعقلاً وروحاً وقلباً إلى من بيده الأمر .

أسلمها اختياراً راضياً ، أسلمها إسلام المحب المغتبط .... "(١)

فإذا عدنا إلى إبراهيم بن أدهم الذى اخترناه للدلالة على هذا العنصر من عناصر الترجمة وجدنا أنه فى بداية أمره رحل من خراسان إلى العراق ومنها إلى بلاد الشام ومنها إلى طرسوس ، ومنها إلى بلاد الرمال ... (٢) وهكذا .

ز) المهـــــن :

لم يكن الصوفية – فى غالب الأمر – عالة على مجتمعاتهم ، وقد انتبه الإمام الأكبر إلى هذا العنصر فجعله من عناصر الترجمة ، فنبه إلى المهن عند الصوفية ، إذ يقول : " ثم ها هو ذا أبو الحسن الشاذلى :

كان من كبار المزارعين.

لقد كانت له مزارع بالجَمْع لا مزرعة بالإفراد.

وكان يقتنى الخيل ، ويتخيرها ويركبها .

وكان بيته مفتوحاً لكل طارق .

وكان من دعائه : " اللهم وسع علىّ رزقى فى دنياى ولا تحجبنى بها عن أخراى " (٣).

كما قال الإمام عن السيد أحمد البدوى : " لقد كان للسيد حقل برسيم ، وكان للسيد بهائم ، وكانت له أغنام ، وكان له مشرف على ذلك كله هو الشيخ الراعى .

وكان للسيد مشرف على طهو الطعام ، وعلى عمل الخبز .." (٤)

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٧٤

(٢) د. عبد الحليم محمود : إبراهيم بن أدهم ص ٢٦ ، ٢٧

(٣) د. عبد الحليم محمود : بشر الحافى ص ١٠٧

(٤) د. عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوى ص ٩٠

ويلتفت الإمام الأكبر إلى ألقاب الصوفية ، ويذكرها لنا قائلاً : " وأول ما نلاحظ بعض ألقاب الصوفية :

القصّار ، الوراق ، الخراز ، الخوّاص ، البزاز ، الحلاج ، الزجاج ، الحصرى ، الصيرفى ، المقرئ ، الفراء ... وهذه ألقاب من مهد لهم .. (١)

علماً بأن كبار الشيوخ المربين لم يكن الواحد منهم يوصى أتباعه بالتفرغ لسلوك طريق الله – تعالى – ، بل كانوا يقرونهم على ما هم فيه من الأخذ بالأسباب ، ولقد كان ابن عطاء الله السكندرى فى بداية سلوكه يصطرع داخل نفسه عاملان :عامل يشده لطلب العلم وتحصيله . وعامل يجذبه لصحبة شيخه أبى العباس المرسى وملازمته.

ويحكى ابن عطاء الله تجربته تلك قائلاً : " فشق علىّ أن يفوتنى العلم ، وشق علىّ أن تفوتنى صحبة الشيخ – رضى الله عنه – ، فأتيت الشيخ فوجدته يأكل لحما بخل ، فقلت فى نفسى : ليت الشيخ يطعمنى لقمة من يده ، فما استتمت الخاطر إلا وقد دفع فى فمى لقمة بيده ، ثم قال : " نحن إذا صحبنا تاجراً مانقول له : اترك تجارتك وتعال ، أو صاحب صنعة ما نقول له : اترك صنعتك وتعال ، أو طالب علم ما نقول له اترك طلبك وتعالى ، ولكن نقر كل أحد فيما أقامه الله فيه ، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه .

وقد صحب الصحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ،فما قال لتاجر: اترك تجارتك ، ولا لذى صنعة : اترك صنعتك ، بل أقرهم على أسبابهم وأمرهم بتقوى الله فيها." (٢)

بيد أن المرسى يسير شوطاً أبعد فى هذا الأمر ، ويزيد المسألة عمقاً ، فيغرق بين السالك فى بدايته وبين السالك بعد تمكنه ورسوخ قدمه فى الطريق ، وفى ذلك يقول : " نحن إذا أتانا مريد له شئ من الدنيا لا نقول له : اخرج عن دنياك وتعال ، ولكن ندعه حتى ترسخ فيه أنوار المعرفة فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه ، ومثل ذلك قوم ركبوا سفينة ، فقال لهم رئيسها : غدا تهب ريح شديدة لا ينجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم فارموا بها الآن فلا يسمع أحد قوله ، فإذا هبت العواصف كان الكيّس من يرمى متاعه بنفسه ، كذلك إذا هبت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه ." (٣)

---

(١) د. عبد الحليم محمود : عبد السلام بشيش ص ٧٣

(٢) د. عبد الحليم محمود : قضية التصوف ص ٢٠٧

(٣) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ص ٣١٢

ولا يقصد المرسى الخروج الكامل عن الدنيا ، ولم يفهم الإمام الأكبر عنه ذلك ، بل إن للإمام وجهة نظر متكاملة حول الدنيا والمال والزهد والتوكل لا يسعنا المقام لبسط القول فيها . (١)

م - الكرامات :

تعتبر الكرامات من العناصر المهمة للترجمة عند الإمام الأكبر ، ونشير الآن إلى نماذج تلقى الأضواء على كيفية تناوله لهذا العنصر ، ففى البداية نرى أنه تعامل معه كمشكلة يبحث لها عن حل ، وهو يمهد لعرض المشكلة بإيراد قصته مع كرامات أبى الحسن الشاذلى على النحو التالى : " حينما بدأت فى تأليف هذا الكتاب فوجئت مباشرة بمشكلة : هى مشكلة الكرامات المنثورة فى كل الكتب القديمة التى أرخت لأبى الحسن ، وهى من الكثرة بحيث لا يمكن إغفال الحديث عنها .

هل أنقلها جميعاً وأدع مسئولية روايتها على الذين ذكروها ؟

وإذا ما نقلتها جميعاً فهل أكون بذلك قد أحسنت بالنسبة لأبى الحسن ؟

أم أكون قد أسأت بالنسبة إليه ؟

إن الكثير من المثقفين فى العصر الحاضر يمجون ذكر الكرامات هكذا بدون حساب ، وفى إسراف مسرف ، ومما لاشك فيه أن أتباع الولى أينما كان وأينما كانوا يحاولون الإشادة بذكره فيروون عنه الكرامات الكثيرة ، فيصادف ذلك قبولا وارتياحا عند البعض ، ونفورا وإعراضا عند الآخرين .

ولقد وصل الأمر ببعض المنكرين للكرامات أن أنكروا كل المعجزات الحسية التى ذكرت للرسول - صلى الله عليه وسلم - فى السنة الصحيحة ، وفى الأخبار التى محصها رجال الحديث ، واكتفوا - فى المعجزات - بالقرآن الكريم نافين كل شئ غيره مما ذكرته كتب الصحاح على اختلاف ألوانها .

إن روح الكثيرين فى العصر الحاضر تنادى بإنكار الكرامات ، وتسخر فى وضوح ، أوفى إشارات بكل من يروى كرامة لولى .

هل أجارى هؤلاء أم أولئك ؟.

---

(١) انظر مثلاً : بشر الحافى ص ١٠٣ ، الشبلى ص ٦٨، ٦٩ ، الفضيل بن عياض ص ٤٥

ومع قيام هذه المشكلة أمامى فى وضوح فإننى لم أتردد قط فى أن أبدأ كتابى هذا بعد المقدمة بكرامة لأبى الحسن ، وما شككت قط فى ثبوتها، وما شككت قط فى صحة النقل .

ثم وجدتنى أنقل هذه الكرامة فى مناسبة ، وتلك فى أخرى ، ولم أجد فى ضميرى عتابا ، ولا فى شعورى تراجعا ، ولا فى ذوقى نفورا."(١)

ثم يتساءل الإمام عن علة عدم تحرجه فى نقل بعض كرامات أبى الحسن ، وفى معرض إجابته على هذا التساؤل يسوق أسبابا جمع فيها - باقتدار وتمكن - بين النقل والعقل والوجدان ، وهذه الأسباب - رغم وجازتها - حققت الهدف منها ، بل هى صالحة - من وجهة نظرى - للوفاء بإقناع المعارضين ، وإفحام المجادلين ، وطمأنة المعتقدين ، وها نحن نورد ذلك فيما يلى :

" لماذا لم أجد حرجاً فى نقل بعض الكرامات فى كتابى هذا ؟ لماذا ؟

للأسباب الآتية :

١- إن القرآن الكريم يحدثنا فى أسلوب لا لبس فيه عن المعجزات التى تفضل الله بها على رسله وأنبيائه .

ويحدثنا عن الكرامات التى منحها - سبحانه - لأوليائه وأصفيائه .

ألم يحدثنا القرآن بصورة لاتحتمل التأويل بأن عيسى - عليه السلام - كان يخلق من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ؟

ألم يحدثنا عن سيدنا موسى بأنه ألقى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ، وبأنه أخرج يده فإذا هى بيضاء للناظرين ؟.

وسيدتنا مريم ألم تحمل بسيدنا عيسى من غير أب خارقة بذلك قوانين الطبيعة ، وكانت كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال : يامريم أنى لك هذا ، قالت : هو من عند الله .

٢- ثم إن مانسميه قوانين الطبيعة إنما هو فى الواقع " عادات " الطبيعة .

وخرقها ليس بمستحيل عقلاً .

وخرقها لا يترتب عليه مستحيل .

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٢٠١،٢٠٢

وعادات الطبيعة لا تسيطر على ربِّ الطبيعة .

٣- ثم إن هؤلاء الذين تجرى على أيديهم المعجزات أو الكرامات لا ينسبونها لأنفسهم ، وإنما ينسبونها إلى المتفضل الوهَّاب صاحب القدرة والقهر ، إنهم ينسبونها إلى من هو على كل شئ قدير .

٤- والملاحظ فى منكرى الكرامات على مر العصور أنهم يتميزون بألوان من الغلظة ، وقساوة القلب ، فلا تجد فيهم رقة الشعور ، ولا صفاء البصيرة ، ولا ملائكية الروح ، وهم – إن لم يكونوا من الملاحدة – من الصنف الذى لم يخالط الإيمان شغاف قلبه ، وإنما بقى صورة عائمة على السطح .

٥- وجمهرة المسلمون على مر العصور ، عامتهم وخاصتهم ، وقممهم الشوامخ فى العلم والدين هم من الذين يثبتون الكرامات ويؤمنون بها." (١)

هذه هى الأسباب التى جعلت الإمام يورد بعض كرامات أبى الحسن دون حرج ، وهى أسباب عامة كما رأينا ؛ ولهذا فإنه لم يكتف بها بل قام بإيراد أسباب خاصة دعمها بنماذج لكرامات وقعت له – هو – شخصيا ؛ ليذكرنا بالسمة المنهجية التى أشرنا إليها فى المبحث السابق ، وهى الامتزاج بين الشخصى والمعادل الموضوعى ، فهويقول فى لهجةٍ مؤثرة بعد إعلانه عن إضافة بعض الأسباب الخاصة : " ... أضيفها معلنا فى غير كبرياء ولا فخر بأننى من الأشخاص الذين لا تلعب بهم الأوهام ولا التخيلات ، ولم أكن فى يوم من الأيام فريسة أباطيل أو خرافات ، ولقد باعد الله – سبحانه ، وله الفضل والمنة – بينى وبين التأثر بالإيحاء الموهم .

فإذا أضفت أسباباً خاصة فإنما أضيفها عن يقين وثقة ، ولعل الله يهدى بها بعض من لا يزال فى قلوبهم الاستعداد للخير ، وفى أرواحهم أسس الاهتداء إلى الحق :

فى فترة من الفترات ابتلاني الله بموضوع شق على نفى وعلى نفس المحيطين بي، واستمر الابتلاء مدة كنا نلجأ فيها إلى الله طالبين الفرج .

وذات يوم أتى بعض الصالحين – وكان على علم بهذا الابتلاء –، وأعطانى ورقة كتبت فيها صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وقال: اقرأها ، واستغرق فيها ، وكررها فى الليل لعل الله يجعلها سببا فى تفريج هذا البلاء .

(١) السابق : ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

واعتكفت فى غرفة بعد صلاة العشاء ، وأضأت نور الغرفة ، وأمسكت الورقة بيدى ، وأخذت فى تكرار الصيغة ، واستغرقت فيها ، وإذا بى أرى فجأة أن الحروف التى كتبت بها الصيغة مضيئة تتلألأ نوراً، ومع أن الغرفة كانت مضيئة فإن الحروف كانت تتلألأ نورا فى وسط هذا النور .

ولم أصدق عينى فغمضتها ، وفتحتهما عدة مرات فكان النور على ماهو ، فوضعت الورقة أمامى ، ووضعت يدى على عينى أدلكهما وأدعكهما ، ثم فتحت عينى فإذا بالحروف على ماهى عليه تتلألأ نورا ، وتشع سناء .

فحمدت الله ، وعلمت أن أبواب الرحمة قد فتحت ، وأن هذا النور رمز لذلك ، وفعلاً أزال الله الكرب وحقق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة .

وأمر آخر من خوارق العادات شاهدته بنفسى :

فى ذات صباح كنت جالساً فى المنزل فى غرفة المكتب كعادتى ، وكنت فى تلك اللحظة مطأطئ الرأس ، ثم رفعت رأسى ناظراً أمامى ، وإذا بى أجد أمامى إنسانا فأخذت فى تأمله دون أن أشعر قط بخوف أو فزع .

كان طويلاً أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة يميل لونه إلى السمرة ، وعلى رأسه شالٍ أبيض ، أو ما يسميه المجازيون " الغطرة " ، وكان فى وقفته منحنياً قليلاً ، وقد تأملت ملابسه أيضا فى تفاصيلها وشكلها .

لم يتحدث معى ، ولم أتحدث إليه .

وبعد فترة ونحن على هذا الوضع أنظر إليه فى تحديق ، ويمد عينيه إلى فى نظرات ثابتة أخذ يشف شيئا فشيئا ، وألاحظ أنا فى وضوح: التدرج فى هذه الشفافية ، وانتهت الشفافية بزواله تماما دون أن يتحرك من موضعه.

ذلك ماشاهدته بنفسى ، وماذا يكون خرق العادات غير هذا ؟ " (١)

وقد فصّل القول فى الكرامات فى كثير من تراجمه ، مثلما صنع فى ترجمته لبشر الحافى حيث ساق عناوين بعض الكتب التى أفاضت فى ذكر الكرامات ، وكما أورد نماذج لكرامات الصحابة ، ومنهم أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – حيث يقول عنه : " وصح من حديث

(١) نفسه : ص ٢٠٤ ، ٢٠٥

عروة بن الزبير عن عائشة – رضى الله عنها – أن أبا بكر الصديق – رضى الله عنه – كان نحلها جذاذ [١] عشرين وسقا من ماله بالغابة ، فلما حضرته الوفاة قال :

والله يا بنية ما من الناس أحب إلىّ غنى بعدى منك ، ولا أعز علىّ فقرا بعدى منك ، وإنى كنت نحلتك جذاذ عشرين وسقا ، فلو كنت حُزتيه كان لك ، وإنما هو اليوم مال وارث ، وإنما هما أخواك و أختاك ، فاقتسموه على كتاب الله.

قالت عائشة : يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته ، إنما هى أسماء فمن الأخرى؟

فقال أبو بكر : ذو بطن أراها جارية .

فكان كذلك .

قال التاج السبكى : وفيه كرامتان لأبى بكر – رضى الله عنه – :

إحداهما : إخباره أنه يموت فى ذلك المرض حيث قال : " وإنما هو اليوم مال وارث " .

والثانية : إخباره بمولد يولد له ، وهى جارية . "[٢]

وأخذ الإمام يسوق غيرها من الكرامات للصحابة والتابعين، والصوفية ومنهم صاحب الترجمة :

بشر الحافى من خلال فصل كامل تحت عنوان : بشر والكرامات [٣]، والفصل كله مهم .

وللكرامة علاقة بالولاية يذكرها ابن عطاء الله السكندرى قائلاً : " واعلم أن الكرامة ليست من شروط صحة الولاية ، فقد تحصل الكرامة ، لكن إن وقعت لولىّ فهى دالة على صدق عبادته، وعلو مكانته بشرط اتباعه لحقيقة ما أمر به النبى – عليه السلام –، وإلا فهى خذلان من الشيطان ، ومن الصالحين من يعلم بولايته ،

---

(١) الجذاذ : الصرام ، وهو قطع ثمر النخيل .

(٢) د. عبد الحليم محمود : بشر الحافى : ص ١٢١

(٣) السابق : من ص ١١٩ حتى ص ١٢٩

انظر : فصولا فى الكرامات فى المؤلفات الأخرى مثل : أبو يزيد البسطامى – سهل التسترى – شمس الدين الحفنى .

ويعلم غيره بها ، ومنهم من لا يعلم بنفسه ، ولا يُعلم به ، ومنهم من يُعلم به ولا يعلم هو نفسه .

والعالمون بها : منهم من يكتمها جهد استطاعته ، ومنهم من يظهرها ويصرح بها . " [١]

ونختم هذا العنصر بكرامة أوردها ابن عطاء الله تحققت لشيخه أبى العباس المرسى ، يقول عنها : " وأخبرنى الشيخ العارف نجم الدين الأصبهانى قال : قال لى الشيخ أبو العباس يوما: ما اسم كذا وكذا بالعجمية ؟ ، فخطر لى أن الشيخ يحب أن يقف على لغة العجم ، فأتيت إليه بكتاب " الترجمان " [٢] ، قال : فقال الشيخ : ماهذا الكتاب ؟ فقلت : كتاب " الترجمان " ، قال : فضحك الشيخ ، وقال : سل بالعجمية ما شئت أجبك بالعربية ، وسل ما شئت بالعربية أجبك بالعجمية ، فسألته بالعجمية فأجابنى بالعربية ، وسألته بالعربية فأجابنى بالعجمية ، وقال : يا عبد الله ! ما أردت بقولى : ما اسم كذا إلا مباسطتك ، وإلا فلا يكون صاحب هذا الشأن ، ويخفى عليه شئ من الألسنة . " [٣]

وفى هذا النص رأينا رابطة واضحة بين الكرامة والعلم باللغات الأجنبية المتحصل لا عن طريق الدراسة والكسب ، بل عن طريق الوهب الذى لا يتم إلا للمحققين من الصوفية المقتدين بالأسوة الحسنة ، المقتفين آثار رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، العاملين بما علموا ، فعلمهم الله – تعالى – علم مالم يعلموا .

ط- المقامات :

اهتم الإمام الأكبر بقضية الطريق إلى الله – تعالى – من حيث : الأركان، والقواعد ، والبداية ، والتدرج فى السلوك ، والنهاية ، و غيرها .

وتبرز هذه المفردات واضحة كعناصر فرعية تحت العنصر الرئيس لها حضورها البارز فى كتابته عن شيوخ الصوفية .

ولكننا نكتفى منها بالمقامات لأنها تمثل الوجه السلوكى ، أو الجانب العملى فى الطريق إلى الله – تعالى – ، كما نكتفى من ناحية أخرى بالمقابلة بين بعض من ترجم

---

(١) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن : تحقيق د. عبد الحليم محمود ص ٣٢ الهامش .

(٢) كتاب الترجمان يساوى القاموس بلغة عصرنا هذا .

(٣) ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن : تحقيق د. عبد الحليم محمود ص ١٨٤

لهم فى إثباتها لديهم بهذا التدرج عند كل منهم دون الدخول فى التفصيلات ، لاتساع الموضوع ، وامتلاء صفحات التراجم بعناصره وجزئياته :

المقامات عند:				
ابن أدهم ١٦٢هـ	بشر الحافى ٢٢٧هـ	الشبلى ٣٣٤هـ	أبو مدين الغوث ٥٩٤هـ	الإمام الدردير ١٢٠١هـ
التوبة	الإخلاص	التوبة	التوبة	التوبة
التقوى	التوبة	الذكر	الإخلاص	الشكر
الورع	الورع	الزهد	الورع	الصبر
الزهد	الزهد	التوكل	الزهد	الرضا
المحبة.(١)	التوكل	الخوف والرجاء المحبة.(٣)	المحاسبة	الجوع
	الصبر		المراقبة	العزلة
	الشكر		الذكر	الصمت
	المحبة.(٢)		التوكل.(٤)	السهر
				الفكر والذكر.(٥)

والواضح من هذه المقابلة للوهلة الأولى أن التوبة مقام مشترك عند الجميع ، وما ذلك إلا لأنها البداية الجادة لسلوك الطريق إلى الله - تبارك وتعالى - .

٣- اقتحام المشكلات وحلها :

من الميسور لكل من تعامل مع تراث الإمام الأكبر - رضى الله عنه - أن يتعرف على هذه السمة الطيبة لديه ، وهى ترتبط بدينه وخلقه ، وخلفيته الثقافية ، وميراثه البيئى ، فهو رجل على دين ، وعلى خلق ، وخلفيته الثقافية تكونت عن طريق الاطلاع الهادف ، والتربية على أيدى

(١) انظر : إبراهيم بن أدهم من ص ٩٣ حتى ص ١٠٦

(٢) انظر : بشر الحافى من ص ٨٠ حتى ص ١١٧

(٣) انظر : أبو بكر الشبلى من ص ٥٣ حتى ص ٨٠

(٤) انظر : أبو مدين الغوث من ص ٦٤ حتى ص ٨٩

(٥) انظر : الإمام الدردير من ص ٩٧ حتى ص ١٠٩

شيوخ صالحين ، وعلماء مخلصين ، وميراثه البيئى حيث ولد وعاش فى محافظة الشرقية بما لها من سمات متميزة .

انضمت هذه العوامل إلى الخصال الطيبة فى شخصية الإمام الأكبر فشكلت منظومة قيمية لها تميزها وتفردها وريادتها ، مما أكسبه منهجاً للتفكير ،وطريقة للسلوك ، وأسلوباً للتعامل يعتمد على الصراحة المهذبة والمواجهة المحترمة .

جعله ذلك كله يواجه كل مشكلة تعترض طريق إنجاز مشروعه فى الترجمة لشيوخ الصوفية ، وإذا به يقتحمها مسلحاً بأدوات عزّ أن نجد لها نظيراً من : حسن فهم، وقوة حاسمة ، وعزيمة ماضية ، وإخلاص واضح ، ونبرة صادقة ، مع الحب والأناة والصبر الجميل .

وفى هذا القطاع من البحث نختار نموذجاً شخصياً ، وعدة نماذج موضوعية للدلالة على هذه السمة عنده على النحو التالى :

أ) المشكلة الشخصية :

أرجو أن لا يتبادر إلى الأذهان أننى أقصد بالمشكلة الشخصية أنها تخص الإمام نفسه ؛ لأننا مازلنا فى سياق تراجمه ، ولهذا ننبه على أننا نقصد بذلك غيره ، وقد اخترنا السيد أحمد البدوى الذى تعرض للهجوم العنيف من خلال إثارة الشبهات حوله ، وإلصاق بعض التهم به ، كما أنه شخصية مختلف فى أمرها ، وقد مارس الإمام هذه الخاصية المنهجية ، فتعامل مع هذه التهم بأسلوب مباشر ، وقام باقتحام المشكلة وحلها .

فما هى المشكلة وكيف تعامل معها ؟

يتحدث الإمام الأكبر عن السيد أحمد البدوى باستغراب صنيع بعض ضعاف النفوس بسيرته ، وفى ذلك يقول : " ... ولكن الأمر الغريب أن هذه الحياة التى كرسها السيد - رضوان الله عليه - للجهاد فى سبيل الله يحاول بعض من يكتب عليه فى العصر الحديث أن يعطيها ألوانا لا تتناسب مع الحقيقة ، ولا تتفق مع الواقع التاريخى .

وبعض الناس يحاول دائماً أن ينزل بالقمم الشامخة لأن نفسه هو ناقصة ؛ ولأنه يشعر بالحقد دائماً على كل قمة .

ولأنه لايؤمن هو نفسه بالقيم الكبرى ، والمبادئ السامية تجده يسير فى محاولات ملتوية للنزول بأصحاب هذه المستويات الرفيعة إلى المستويات التى يعرفها الكاتب من نفسه ، ومن أمثاله :

مستويات النقص فى بعض صوره .

وإلا فبماذا تفسر هذا النوع من الإنحراف بالنصوص إلى ما لا تعطيه ؟

بماذا تفسر تصوير الأمر بما لا يتفق مع التاريخ الصادق ؟

بماذا تفسر أكل لحوم الصالحين وهم فى عالم الحق ؟

ويزعم بعض الناس أنه ناقد خبير ، أو أنه يكتب بأسلوب علمى ، أو أنه يصور الحق تبعاً للمنهج التاريخى ...

وليست كل هذه الدعاوى وأمثالها إلا الستار الذى يحاول الكاتب أن يختفى وراءه ليحجب به ما فى نفسه من كراهية للصلاح والتقوى ، ولكنه ستار يبين عما فى النفس أكثر مما يحجب منها .

ولقد لاحظ الناس فى القديم والحديث أن كثيراً من الذين كتبوا التاريخ قد تلوّن التاريخ تحت أقلامهم بألوان ما فى نفوسهم من أهواء ونزغات ونزعات ورغبات .." [١]

وبعد هذه المقدمة العامة يدخل الإمام فى لب المشكلة ويعرضها على النحو التالى مدافعاً عن البدوى قائلاً: " لقد كتب - منذ زمن بعيد - كاتب فى مجلة السياسة الأسبوعية مقالاً عن السيد البدوى قال فيه مستلهماً الوهم المحض : " إن السيد البدوى كان جاسوساً فاطمياً "، لم يستند فى كلامه إلى وقائع تاريخية ، ولم يؤيد كلامه بحادثة من حياة السيد البدوى ، وكان حديثه كله تكراراً لفكرة كاذبة بعدة صور كلامية منمقة ، وكان يلوح عليها فى وضوح : الافتراء :

أولاً: لأن حياة السيد البدوى فى نفسها خلصت لله ، لقد كان يصوم نهاره ، وكان إذا جن عليه الليل قامه فى قراءة القرآن ، وكان منصرفاً بكيانه كله إلى الهداية إلى الله .

وإنسان هذه حالته لا يتأتى له أن يكون جاسوساً فاطمياً .

وثانياً: من المعروف أن الدول أياً كانت ، شديدة الحساسية لكل ما تشم فيه رائحة العمل على زوالها ، وما كان يعجز الدولة الأيوبية أن تلقى بالسيد فى غيابة جب ، أو فى أعماق سجن ، بل ما كان يعجزها إعدامه ، أو إخراجه من البلاد لو شمت فيه ، ولو من بعد رائحة الجاسوسية للفاطميين .

وإن الدولة التى قضت على الفاطميين برغم دهائهم وقوتهم وجيشهم فى البر والبحر ... إن الدولة التى قضت على الفاطميين ما كانت لتعجز أمام رجل ...

---

(١) د. عبد الحليم محمود : السيد أحمد البدوى ص ٢٩

وثالثاً : لم يلاحظ شخص ما من المحيطين بالسيد أنه ذكر الفاطميين أو دعا إليهم، أو تحدث عن أيامهم أو ذكرهم على أى وضع من الأوضاع .

رابعاً: لقد كان بين السيد وبين الحكم القائم حسن تفاهم ومودة ."[١]

ولم يكن هذا الإيضاح هو الطرح الوحيد الذى قام به الإمام عن السيد أحمد البدوى، بل سبقه باتخاذ موقف دفاعى قام فيه بالتماس المبررات التى كانت وراء عزوف البدوى عن الزواج .[٢]

ب) المشكلات الموضوعية :

تعرض الإمام لكثير من المشكلات الموضوعية ، وقام بحلها ، وسنعرض لثلاث منها : الأولى نظرية ، والثانية عملية ، والثالثة معاصرة .

١- مصادر التصوف : (نموذج للمشكلات النظرية)

تعتبر قضية المصادر فى الدراسات الصوفية من أهم المشكلات وأخطرها على الإطلاق ، لأنها تشكك فى مصداقيته ، وأصوله الأولى ، وتسحبها إلى جذور بعيدة ، مبتوتة الصلة بالجو الإسلامى ، فماذا يبقى للتصوف الإسلامى إذا سرنا مع هذه الفرية ، وسايرنا القائلين بها ؟

ولهذا قام الشيخ الإمام باقتحام هذه المشكلة اقتحام الجسور المقدام الذى لايضع سلاحه إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها ، فقام بتفنيد هذه التهمة ، وإسقاطها فى أكثر من سياق بالاستفهام تارة والسخرية أخرى والإقرار بعكسها ثالثة.

ونبدأ برد المبدأ الدفاعى عنده إلى سياقه المنهجى ، فنتعرف على هذه الخاصية لديه ، والتى تتمثل فى اعتزازه بدينه الإسلامى ، وثقافته الإسلامية ، واستنكاره كل مايصادم هذين الأصلين ورفضه ، وفى ذلك يقول : " ولكننا حقيقة : يأخذنا العجب من أن بعض الناس يحاولون دائما إيجاد أصل أجنبى للنظريات التى تنبت فى البيئة الإسلامية ، ويعملون جاهدين على إيجاد مصدر قديم : يونانى أو فارسى أو هندى لكل ماهو إسلامى .

إن فكرة الاتصال بالملأ الأعلى ، وتلقى المعلومات من السماء كانت شائعة ذائعة فى جميع أرجاء المملكة الإسلامية ، لقد كان الكل يعرف أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صلة بالسماء ، وأنه

---

(١) السابق : ص ٣٦ ، ٣٧

(٢) نفسه : ص ٣٣ ، ٣٤

يتلقى المعرفة من الملأ الأعلى ، والقرآن مفعم بأخبار الأنبياء والرسل الذين اتصلوا بالله ، وسمعوا كلامه ، وأشرقت نفوسهم ببهائه ، وفى القرآن قصة العبد الصالح الذى آتاه الله من لدنه علما. (١)

بيد أن العودة لبدايات التناول عند الشيخ الإمام تطلعنا على خاصية منهجية أخرى، وهى : عدم القطع بنفى التأثيرات الأجنبية ، ربما لأنه فى هذه الأثناء لم يكن قد استوفى أركان منهجه ، أو لم يكن مارس مزيداً من الاطلاع ، أو لأنه اختار جانب الاحتياط والحذر وخصوصا وهو يتلمذ على أيدى مستشرقين غير مسلمين وغير عرب ، وفى ذلك يقول فى رسالته عن المحاسبى : " وقد يسأل سائل : ألم تكن هناك تأثيرات أجنبية على أهل التصوف الإسلامى ؟

نحن لاننفى ذلك ، فمن المحتمل أن بعض المفكرين تأثروا بالتيارات الخارجية ، كما لا شك أنهم بدورهم أثروا فى هذه التيارات .

ولكن لماذا الرغبة الملحة فى ربط سائر الصوفية المسلمين بها ، وإطلاقها عليهم عامة ، بينما المنطق والواقع يدعوان إلى كثير من الاحتياط والتحديد . (٢)

وهو ما اصطنعه الإمام فى بدايات رحلته مع الدراسات الصوفية ، ولكنه فى مسيرة حياته العلمية تجاوز مرحلة الاحتياط والتحديد ، وكان أكثر وضوحا وأشد حسما فى القطع برأى ينفى تماما هذه التهمة ، وقد كرر ذلك فى أكثر من سياق ، من ذلك - مثلا - قوله : " .. أخذ المستشرقون يتحدثون عن مشكلة وهمية هي مشكلة مصادر التصوف، ولا يزالون مختلفين.

وجارى الشرقيون المستشرقين في الحديث عن مصادر التصوف، وكما اختلف المستشرقون فقد اختلف الشرقيون ولا يزالون مختلفين.

سيستمر الخلاف لأن النقاش إنما هو عن مشكلة وهمية،وسيستمر الخلاف لأن وضع المشكلة خطأ.

انهم يتحدثون عن مصادر ثقافية على اعتبار أن التصوف ثمرة ثقافة كسبية، وما دام ثمرة ثقافة كسبية فانه إذن يتأثر بالوسيلة التي أدت أليه،أي بالثقافة الكسبية التي كان ثمرة لها.

ولكن التصوف ليس ثمرة لثقافة كسبية ، إن الوسيلة إليه ليست هي الثقافة ، ولكن الوسيلة إليه إنما هى العمل ، إن الطريق إليه إنما هو السلوك.

---

(١) د. عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٣٥٧

(٢) د. عبد الحليم محمود : الحارث المحاسبى ص ٣٢٥

والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هى : إلهام ، وهى: كشف ، وهى: ملأ أعلي انعكس على البصيرة المجلوّة فتذوقه الشخص حالا ، و أحس به ذوقا، و أدركه إلهاما وكشفا.

فهل يتأتى والحالة هذه أن نتحدث عن : مجوسية التصوف الإسلامي ، أو عن أفلاطونيته ، أو فارسيته ، أو هنديته ؟!!

سار المستشرقون فى طريق خطأ ، وجاراهم الشرقيون فضلوا بضلالهم ، بيد أن المؤسف هو أن الناس ألفوا الحديث عما سماه المستشرقون : مصادر التصوف الإسلامي ، وشارك فى الحديث عنها القارئون والسامعون ، وهكذا لبس الوهم صورة الجد ، واتخذ الزائف مظهر الصحيح ،وكان نقاش وكان جدل،وما زال النقاش وما زال الجدل،وسيستمر ذلك إلىأن يصحح الوضع .

وتصحيح الوضع إنما هو بحذف الوهم الذى اتخذ صورة الجد ، وبحذف الزائف الذى لبس مظهر الصحيح:

أي بحذف ما يعبرون عنه بمشكلة " مصادر التصوف ".(١)

فى هذا النص يطالب الإمام بشطب مشكلة المصادر من إلدراسات التى تتناول التصوف الإسلامي ، ولكن المستغرب أنه – شخصيا – لم يقم بذلك ، بل يمارس الدفاع، و إعلان رأيه فيها فى كل مناسبة، من ذلك ما كتبه فى التفكير الفلسفى فى الإسلام ، وهو: " التصوف الإسلامي – زعموا – أنه نتيجة لثقافة أجنبية دخلت فى الإسلام ، والفلسفة الإسلامية : ليست إلا تقليدا للفلسفة اليونانية،والتشريع الإسلامي : يستمد من التشريع الرومانى... الغريب فى الأمر: أنهم ينقسمون فرقا تتجادل فى المصادر والمنابع كأنهم يعتقدون : أن القراء يأخذون آرائهم مأخذ الجد، ويعتبرونها بحثا علميا صحيحا.

ولنضرب مثلا يوضح : إلى أي مدى يبلغ الاستهتار العلمى:

فالزهد والتصوف:أثران للقرآن والحديث ، ولحياة الرسول الشخصية.

ومع بداهة ذلك ، فان المستشرقين،ومن تابعهم من الشرقيين يأخذون فى الجدل حول مصدر الزهد والتصوف فى الإسلام.

---

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

١٥٠٠ يراه بعضهم في المسيحية،ويراه آخرون فى : الديانة الفارسية ، وقوم يرونه : آثرا من آثار العقائد الهندية ، و آخرون يرون : أصوله فى الأفلاطونية الحديثة...

ثم يتجادلون ، ويصطنعون مظهر الجد فى جدلهم ، ويتسرب الجدل حول هذه المنابع والأصول من الغرب الى الشرق: فيتجادل الشرقيون أيضا حول أصول التصوف،ومنابعه ومصادره الأجنبية عن الإسلام .

وفى حميّا الجدل ، وفى فورة المناقشة : تتناس الحقائق الثابتة ، وهى: إن الزهد كان منذ ظهور الإسلام ، وإن التصوف نشأ مع الإسلام ، وأن التشريع وجد مع القرآن ، وأن كل هذه المسائل كانت فى القرآن وبالقرآن ، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم –مثلا حيا لتطبيقها، وكذلك كان شأن الكثير من أصحابه".(١)

ب- إسقاط التكاليف الشرعية:(نموذج للمشكلات العملية) :

تناول الإمام الأكبر – رحمه الله – قضية التكاليف الشرعية من حيث الالتزام بها أو التحلل منها فى أكثر من سياق ، وهو يؤمن بالالتزام، ويرد التحلل ويهاجم الداعين إليه، ويسفه آراءهم ، ويهدم دعواهم، فمن ذلك مثلا ما كتبه فى ترجمته للشاذلى حيث يقول : " جاء الدين الإسلامي بتكاليف عديدة لصلاح الفرد ولصلاح المجتمع، وهذه التكاليف يتبين من اسمها : أن فيها شيئا من المشقة على هؤلاء الذين لم يتذوقوا الصلة بالله.

ولما فى التكاليف من مشقة حاول كثيرون التخلص منها بشتى الوسائل أو التأويلات المنحرفة .

ومن أضل هذه الوسائل ما يزعمه البعض من أنه وصل من الصلة بالله إلى رفع التكاليف عنه ، وتلك خدعة شيطانية . "(٢)

وفى خاتمة ترجمته لبشر الحافى كتب يقول : " إن هذه الخاتمة يمكن أن تكون خاتمة لكل كتاب من كتب التصوف التى ألفتها ، ويستوى فى ذلك أن يكون عن موضوع التصوف ، أو عن شخصية من شخصيات الصوفية :

ذلك أنها توضح صلة الصوفية بالشريعة ، أو توضح منهجهم فى سلوكهم ، وما كان منهج سلوكهم فى يوم من الأيام إلا التزام الشريعة .

---

(١) د. عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٢٤١ ، ٢٤٢

(٢) د. عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٨٧

١٥٠١ وإذا أبانت هذه الخاتمة عن منهج سلوكهم فى الحياة فإنها تعتبر رداً على كل المفتريات ضد الصوفية .

وما من شك فى أن مسألة التزام الشريعة مسألة أثارت – مع بداهة وجوبها – جدلا من زمن مغرق فى القدم :

فالإمام الجنيد – مثلاً – وقد عاش فى القرن الثالث الهجرى يقول له سائل ذاكراً المعرفة : " أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله " ، فيقول الجنيد – رضى الله عنه – : " إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهذا عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله : أى عن الكتاب والسنة ، وإليه رجعوا فيها ...

ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها .. "

أما أبو يزيد – رضى الله عنه – فإن له فى هذا الاتجاه بعض الحوادث التى تدل على تمسك شديد بالشريعة ، وعلى مدى الدقة فى شعوره من زاوية صلته بالله – سبحانه وتعالى –

قال مرة لأحد جلسائه :

قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية – وكان رجلا مشهورا بالزهد – فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ، ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فكيف يكون مأمونا على ما يدّعى ؟ !

ولقد تكلم أبو يزيد عن المقياس الذى ينبغى أن يكون أساساً لتقدير أهل الله .

إنه ليس مقياس خرق العادات ، فقد تخرق العادات لمن ليس لهم قدم راسخة فى مجال العبودية .. يقول أبو يزيد : " لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرقى فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ."(١)

ثم يستطرد الإمام فى الكشف عن وجهة نظره المهتمة بالتكاليف الشرعية من خلال اقتباس أقوال شيوخ التصوف الدالة على اهتمامهم بهذه القضية الجوهرية الخطيرة ، ثم يعقب عليها بقوله : " وهذا الاتجاه إنما هو اتجاه الصوفية على وجه العموم .

---

(١) د. عبد الحليم محمود : بشر الحافى ص ١٤٩ – ١٥١

إنهم يسيرون على نهج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فهو أسوتهم ، وهو قدوتهم ، وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أكمل مايكون فى هذا الجانب.

لقد كان خلقه القرآن ؛ ولأن الخلق القرآنى هو الذى يقرب إلى الله – سبحانه – نهج الصوفية هذا المنهج . "(١)

ولكاتب هذه السطور رؤية متكاملة حول موقف الصوفية من التكاليف الشرعية . (٢)

جـ– السلفية والصوفية : (نموذج لمشكلة معاصرة):

تعرض الإمام الأكبر – رحمه الله – لهذه المشكلة فى آخر كتبه فى التراجم ، وهو ترجمته لأبى الأنوار شمس الدين الحفنى الذى انتهى منه فى ١٩٧٦/١٢/١٠م ، وانتقل إلى جوار ربه فى ١٩٧٨/١٠/١٧م ، وهى مشكلة ذات تأثيرات سلبية فى ميدان الدراسات الإسلامية ، وخصوصاً فى جو التصوف الإسلامى ، والذين ينتمون إلى التيار السلفى المعاصر يتسمون بضيق أفق لافت للنظر حيث لا يقبلون وجهة نظر مغايرة لما يرونه ، وكأن ما يرونه عقيدة أو جزء منها ، رغم أن الأمور الخلافية فيها رقعة واسعة ، وهامش مرن يمكن التحرك فيه بغير فرقة أو خصومة أو تحزب ، وقد عانى الصوفية طويلا من هؤلاء السلفية ، ومازالوا يعانون ، يكفى للتدليل على ضيق أفقهم أنهم يتخيلون التصوف بديلا عن الإسلام ولم يقل أحد بهذا القول ، ولم يزعمه أحد من الصوفية ، فالتصوف مثله مثل غيره من علوم الإسلام، فهل زعم زاعم أن التفسير أو الحديث أو التوحيد أو الفقه أو غيرها بدائل عن الإسلام ؟

ومن هنا تأتى قيمة الطرح الأخير للقضية عند الإمام ، وقد أدلى بوجهة نظره كما نوهنا فى أواخر عمره المبارك ، بعد أن استقام مشروعه، واكتملت قواعده المنهجية ، ووصل فى النضج إلى سنامه ، وفيما يلى نسوق عرضه وتصويره لهذه المشكلة ورأيه فيها حيث كتب يقول : " ومما يغفل الناس عنه ، ولا يتحدثون به ، لأنهم يجهلونه أن الإمام ابن تيمية يقدر تقديراً عظيما الإمام عبد القادر الجيلانى ، ويتحدث عنه باحترام بالغ فى رسالة " العبودية " ، وكلما ذكره يقول : " قدس الله سرّه " ، وللإمام الجيلانى كتاب عميق فى التصوف اسمه " فتوح الغيب "، وهذا الكتاب مطبوع ومتداول ، ويخصص الإمام ابن تيمية ما يقرب من

---

(١) السابق : ص ١٥٣

(٢) انظر : موقف الصوفية من التكاليف الشرعية – مقال للباحث فى حولية كلية أصول الدين – القاهرة – العدد الثالث عشر لسنة ١٩٩٦ م .

مائة صحيفة لشرح بعض فقرات هذا الكتاب ، والإشادة بالإمام عبد القادر الجيلانى .

ومن ناحية أخرى : فإن الإمام أحمد بن حنبل يشيد إشادة كبيرة " ببشر الحافى " ، وبشر الحافى من كبار أئمة التصوف ، وكان بينه وبين الإمام " ابن حنبل " صداقة متبادلة وتقدير متبادل ، ويقول الإمام أحمد بن حنبل للسيدة الكريمة أخت بشر الحافى : " من بيتكم يفيض الورع " .

وكل هذا يدل على أن أئمتنا – السابقين منهم والاحقين – ماكانوا يفرّقون بين السلفية والصوفية ...

ومما هو معروف أن الإمام " أبو عبد الله الأنصارى الهروى " من كبار زعماء الحنابلة كان من أئمة الصوفية ، وكان يلقب " بشيخ الإسلام"، وله كتاب من أشهر كتب التصوف اسمه " منازل السائرين " يسير بالإنسان فى مقامات الصوفية ، وفى أحوالهم حتى يصل به إلى القرب من الله – سبحانه وتعالى –.

وجاء الإمام الكبير " ابن القيم " أكبر التابعين لمدرسة " ابن تيمية " فألف كتاباً ضخماً أسماه " مدارج السالكين " شرح فيه كتاب " الهروى " منازل السائرين ، والأصل والشرح أيضا يعبران عن التصوف كاملا : يشيدان به ، ويحثان عليه ، ويبينان أنه هو السلفية الصادقة لأنه " الحب والاتباع ".

لماذا يحاول من ينتسبون إلى السلفية أن يجعلوا بينها وبين الصوفية فرقة واختلافا ؟

نحب أن نقول فى غير إسراف : إن ما يسمونه السلفية الآن هو فكرة ممسوخة لاتمثل السلفية فى قليل ، ولا فى كثير ؛ إنهم يتحدثون عن فوقية ، وعن وجهة ، ويتحدثون عن أمور لا يتحدث فيها السلف – عليهم رضوان الله –.

وأيضاً نحب أن نقول : إنها أصبحت حرفة يحترفها قوم من أجل النفع المادى ، ولو لم تمسخ ، ولو لم تصبح حرفة لما حدثت هذه المناقشات ، ولما حدث هذا الجدل الذى هو سمة من سمات البعد عن السلفية فى الكتب ، وعلى صفحات الجرائد ." (١)

ثم يستطرد الإمام الأكبر مدعماً وجهة نظره بما قاله الشيخ الإمام محمد عبده فى هذا السياق ، فيقول : " يكفى أن نرد على هؤلاء بكلمة قالها " الشيخ محمد عبده " الذى يتمسحون فيه كثيرا ، وهو بصدد الحديث عن الأولياء ، وعن حال القرب ، وقال :

---

(١) د. عبد الحليم محمود : شمس الدين الحفنى ص ١٠ – ١٢

١٥٠٤

" أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس يقارب تلك الحال (حال القرب) فى النوع أو الجنس ، لهم مشارفهم فى بعض أحوالهم على شئ من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدّث به عن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – .

ومن ذاق عرف ومن حُرم انحرف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه :

ظهور الأثر الصالح منهم .

وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم.

وطهارة فطرتهم مما ينكره العقل الصحيح ، أو يمجه الذوق السليم.

وانتفاعهم بباعث الحق الناطق فى سرائرهم ، المتلألئ فى بصائرهم إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه : خير العامة. وترويح قلوب الخاصة . "

هذا ما يقوله الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد ، إنه يقول بالحرف الواحد : " من ذاق عرف " .

أما هؤلاء الذين اتخذوا السلفية حرفة ، ولم يتذوقوا فإنهم لم يعرفوا!.

ويقول : " ومن حُرم انحرف ، وهؤلاء قد حرموا فانحرفوا !.

ونرجو الله – سبحانه وتعالى – لهم الهداية ." (١)

ثانياً: التطبيق : التجربة العملية :

طوّفنا طويلاً ، وحلقنا عالياً فى الجو الصوفى للإمام الأكبر – رضى الله عنه –، وتعرفنا على منهجه : شكلا وموضوعا ، ولايمكن عزل المنهج عن التطبيق ، بل لا قيمة له بغير تطبيق ، وقد أشرنا مرارا إلى أن دراسة التصوف لا تنتج صوفية، كذلك العلم به، أسو التأليف فى موضوعاته ، أو الترجمة لرجاله لا يصنع صوفية ، بل لابد من التحول من الدراسة إلى العمل ، ومن القول إلى الفعل ، ومن العلم إلى السلوك ، ومن المنهج إلى التطبيق .

---

(١) السابق :ص ١٢،١٣

وقد مارس الإمام الأكبر التجربة كلها ، وعاشها : حساً ومعنى ، عقلاً وقلباً ، ذوقاً ووجداناً ، وتقلب فى مراحل الطريق من بدايته إلى نهايته مريداً ثم شيخا ، سالكاً ثم عارفا، وفى كل مرحلة كان عالماً عاملا، قام بإخضاع تجربته كلها للأساس الرئيس الذى صاغه فى كلمتين اثنتين صرح بهما فى ختام عمره ، وهما : " الاتباع والحب " ، وفى ذلك يقول : " وما من هدف لنا فيما نكتب عن التصوف إلا أن نبين الحقيقة فى الوحدة بين مذهب الحب المتبع ، ومذهب الاتباع المحب .

و إذا كانت بعض الطبائع تركز على الاختلاف : تخترعه ، وتجسمه ، وتضخمه، وتتخذه ديناً وشعاراً .

فإننا نركز دائماً على التوحيد والوحدة، ونرى أنه لايتأتى مطلقاً الحب دون الاتباع.

وإنه مما لامرية فيه بين المستبصرين أن الصوفية من أعلام المحبين ، فهم إذن من أعلام المتبعين ، وأن السلفية من أعلام المتبعين ، فهم إذن من أعلام المحبين .

والنتيجة هى أن ماندعوا إليه ، ويدعو إليه كل مخلص أن نسير جميعاً فى ظلال علم : " الاتباع والحب ". (١)

ومن الملاحظ فى هذا النص أن الإمام قد عقد مصالحة بين السلفية والصوفية ، ولكننى أرى أنها مشروطة بحسن فهم كل من الطرفين لحقيقة منهجه الذى أرسى قواعده فى مؤلفاته ، وطبقه فى سلوكه ، والذى يتلخص فى : الاتباع والحب ...

وحتى نستطيع الإلمام بالتجربة الصوفية العملية عند الإمام الأكبر فإننى أرى العودة إلى بداياته الدراسية الأكاديمية فى فرنسا لما لها من تأثير على رحلته السلوكية فيما بعد ، ونحن نشترك فى هذا مع المرحوم الدكتور رؤوف شلبى الذى كان من أبرز التلاميذ المخلصين للإمام ، والذى رافقه ربع قرن لم يكد يفارقه فيها ، يقول عن اتجاهه نحو التصوف الإسلامى : " غير أن هذا الاتجاه له من قبل أصل أصيل ، وقاعدة ثابتة فى حياة الإمام الأكبر ".

لقد كانت حياته الشخصية فى فرنسا على المستوى الأعلى من النقاء والطهر والنظافة .

وكانت حياته العلمية على قدم وساق من الجد والاجتهاد .

---

(١) نفسه ص ١٣ ، ١٤

وكانت وجهته فى الدراسات العليا هى قضايا التصوف من خلال دراسة المحاسبى .

فالسلوك سابق فى الطهر والنقاء.

وطلب العلم لم يهدأ ثانية ، ولم يسر زمنياً بل قفز هندسياً .

والصعاب لا تذهل ولا تفت فى العضد.

والطريق قد انفتح بالدراسة فى المحاسبى .

فالدراسات العليا فى المحاسبى هى التى ركزت وجهة الشيخ الأكبر فى إنتاجه العلمى ثم السلوكى ، ومن هنا كانت أستاذيته فى العلم ، وأستاذيته فى السلوك ." (١)

والفصل بين العلم والسلوك واضح فى هذا النص ، ولكنه فصل منهجى فحسب ؛ لأنه من العسير أن نقوم بتشطير الشخصية إلى قطاعات إلا منهجيا ، وهو ماسنقوم به الآن، ونبدأ بأستاذيته فى العلم .

أستاذية الدكتور عبد الحليم محمود لم تكن أستاذية بالادعاء ، وكانت مدرسته الفكرية هى النقلة من :

أ- التضييق الفلسفى إلى إحياء السنة الإسلامية سلوكاً .

ب-ومن التنطع بعلم الكلام إلى تلك الحركة الإيجابية القائمة على الإيمان والخضوع لله تتجه فى كل صوب لتنتج : فى العلم ، وفى المجتمع ، وفى الجهاد الإسلامى .

ج- ومن الجرى وراء أصحاب التبشير والاستشراق إلى الاعتصام بالكتاب والسنة: قولاً وفعلاً .

د- ومن الحيرة فى دهاليز مدعىَ الإصلاح إلى الوضوح فى بناء الإصلاح على العلم والإيمان . (٢)

فماذا عن رحلته السلوكية ؟

لقد انتظم الإمام الأكبر فى صفوف السادة الشاذلية ، ويتحدث هو عن بدايته تلك قائلا : "... كل ذلك جعل عدتى للكتابة عن أبى الحسن تزداد عتاداً ، وتزداد قوة ... ولكن الصحف ماتزال مطوية .

(١) د. رؤوف شلبى : شيخ الإسلام عبد الحليم محمود : ص ٧٢ ، ٧٣

(٢) السابق : ص ٢٣٣

ثم كانت ملابسات عديدة ، وظروف متناسقة ، جعلتنى آخذ الطريق الشاذلى ، وأندمج فى جو المريدين ، وأواظب على الأوراد والأذكار الشاذلية ." (١)

بيد أن الإمام لم يعط لنا تفصيلاً حول سلوكه ، ومن هنا فإننا نتلمس ذلك فيما كتب عنه ، إلا أن المراجع التى ألفت حوله قلة نادرة لا تتناسب مع قدره وتاريخه وعطائه.

يقول الأستاذ أحمد زيادة عن التصوف عند الإمام : ".. كان متصوفا على النهج الصوفى الصحيح الذى يعتمد على الكتاب والسنة ، ويقتدى بفعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام .

وقد أخبرنى شيخى وأستاذى السيد محمد محمد أبوخليل الصغير – رضى الله عنه– أن الشيخ الإمام قد أخذ العهد على السادة الشاذلية ، وانتهج نهجهم فى الذكر والاستغفار والصلاة على سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أن رأى شيخه يذكر أعداداً كثيرة على مسبحة بها عدّادان ؛ ولأنه كان جاداً فى تصوفه اختلى بشيخه ، وسأله عن سر الذكر الكثير ، فسعد الشيخ من فطنة مريده وأنه يذكر على منهج الشيخ محمد أبو خليل منشئ الطريقة الخليلية ، وأن ذلك المنهج أسرع المناهج توصيلا لله ؛ لأنه اختار ثلاثة عشر اسماً من أسماء الله الحسنى يذكر كلا منها مائة ألف مرة ، حتى إذا انتهى من آخر اسم فيها بدأ الدورة من جديد، فيظل ذاكراً طول عمره إلى جانب كثرة الاستغفار ، والصلاة على سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فسأل الإمام شيخه: وَمنْ منْ أولاد الشيخ الآن يلتزم بالمنهج ويحافظ عليه ؟ قال : السيد محمد محمد أبو خليل الصغير ، سأل الإمام : وأين أجده ؟ قال الشيخ : هو موظف بوزارة الأوقاف ." (٢)

كان الشيخ الإمام حريصاً على التعرف على شيوخ التصوف ؛ ولهذا سأل عن ذلك الشيخ ، وأعد العدة للقائه مثلما صنع قبل ذلك بعد عودته من فرنسا مع الشيخ عبد الواحد يحيى . (٣)

ولعلنا ننوه بأن الدكتور عبد الحليم محمود عندما عزم على لقاء الشيخ كان عميدا لكلية أصول الدين – القاهرة ، بينما كان الشيخ موظفا

(١) د. عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٦،٧

(٢) أحمد زيادة : الإمام عبد الحليم محمود : آخر العلماء الأولياء ص ٣٢ ، ٣٣

(٣) د. عبد الحليم محمود : قضية التصوف ص ٢٨١ – ٢٨٥

عادياً بوزارة الأوقاف ، فالشيخ يعرف للشيوخ أقدارهم ، ولنترك الشيخ أبو خليل يذكر لنا قصة اللقاء : " فوجئت بالإمام عبد الحليم محمود يقف على مكتبى بوزارة الأوقاف ، فوقفت وحييت عميد كلية أصول الدين بماهو أهله ، وفوجئت به يسألنى عن منهج والدى الشيخ محمد أبو خليل .

فسألته : من دلّك علىّ وأنا أضع نفسى داخل خيمة من حديد ، وألبس داخلها طاقية الإخفاء ؟ قال : شيخى .

فأعطيته عنوان منزلى ... ، فحضر فى المساء فى أدب وتواضع جم قل أن رأيت مثله بين العلماء ، وأصرّ أن يجلس متربعا على الأرض، ولا يجلس على كرسى أو أريكة ." (١)

وقد علمت من أساتذتى – رضى الله عنهم – أن الإمام الأكبر كان يحافظ على علاقات ود إيمانى خالص بشيوخ التصوف فى عصره ، وكان يتزاور معهم ، ولا يحصر نفسه فى اتجاه معين ، أو تيار خاص لايتجاوزه إلى ماعداه ، وإن كانت بعض التعاليم النظرية تحظر على السالكين زيارة شيوخ آخرين غير شيخهم فإن ذلك قاصر على مرحلة الإدارة حتى لا يتشوش خاطر المريدين ، ولكن الإمام الأكبر كان قد وصل إلى درجة الأستاذية فى السلوك ، وله رأى جدير بالاهتمام فى هذه المسألة حيث يقول: " الأئمة الكبار هم من سعة الأفق بحيث لايتحكم فيهم تيار معين ، إنهم هم الذين يتحكمون فى التيارات كما يتحكمون فى الأحوال .

والفرق بين الشيخ والمريد هو : أن الشيخ يتقلب فى الأنوار ، والمريد يسعى – بفضل الله – فى تيار من النور معين ." (٢)

وهذا فهم ناتج عن إدراك ذوقى ، وكأن الإمام يتحدث عن نفسه ؛ ولهذا حافظ على علاقاته الإنسانية الروحية بكبار شيوخ عصره ، ونبه الأتباع – أتباع جميع الطرق – إلى نقطة جوهرية بالغة الأهمية ، نهى من خلالها عن التعرض للشيوخ بالموازنة والمفاضلة التى لايمارسها إلا السفهاء وقصار النظر الذين انطمست بصائرهم ، يقول الإمام : " ... وهؤلاء الأئمة الكبار فى مستوياتهم العليا لاينزلون إلى مستويات الموازنة والتفضيل بينهم وبين غيرهم.

كلا ، إنهم يتخذون الشعار الكريم :

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحرأو رشفا من الديم

(١) أحمد زيادة : الإمام عبد الحليم محمود ص ٣٣

(٢) د. عبد الحليم محمود : أبو البركات سيدى أحمد الدردير ص ١٦٣

إن الموازنة والتفضيل والمدح فى شيخ واحد ، والحط من غيره من شيم الذين لم يتسموا الروحانية ، وهى طريقة لا ترضى الأئمة ، ومن الخير أن يتخلى عنها – كلية – الأتباع والسالكون حتى تسود بين كل هذه الطرق وحدة منسجمة ، وتعاون فى قيادة الناس إلى الله تعالى ." (١)

والعنوان العام للمنهج ، والشعار العام للسلوك عند الإمام كما أشرنا سلفا هو الاتباع والحب ، وقد كان الإمام أحياناً يعبّر بلفظ التأسى بدلا من لفظ الاتباع ، وكلاهما يدور حول معنى واحد ، وهو الاقتداء بحبيب الحق وسيد الخلق – صلى الله عليه وسلم – ، ولكن هذا الاقتداء – عند الشيخ – له جوانب منها :

١- العلم :

إن شعار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو : " رب زدنى علما " .. (٢)

ولا يتأتى – فى البداهة البديهية – التأسى برسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا لم يعلم الإنسان سيرته .

لابد من دراسة سيرته – صلى الله عليه وسلم –، ودراسة أحاديثه – صلى الله عليه وسلم – ، ولن يتأتى العلم بسيرته ما لم تدرس أحاديثه .

وإذا كانت دراسة سيرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى القمة من الشعار الإسلامى :

" رب زدنى علما " فإن هذا الشعار مع ذلك عام .

ولا بد – إذن – من أن يكون الصوفى – مريداً وشيخاً – عالماً ، وإذا كان ذلك واجبا فى المريد فهو أوجب فى الشيخ .

بل إنا نقول : إن الشيخ لا يكون شيخاً مالم يعلم سيرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وأحاديثه ، وتفسير القرآن الكريم ، وفقه العبادات .

فإذا لم يكن كذلك فقد ضل و أضل ، وطلب الدنيا عن طريق دينه، أو بتعبير آخر عن طريق عدم المبالاة بدينه وذلك أسلوب يمقته الله ورسوله والصالحون .

ولقد كان أسلافنا عن الصوفية – رضوان الله عليهم – من كبار العلماء ، وكانوا يقولون :

(١) السابق ص ١٦٣ ، ١٦٤

(٢) طه (١١٤)

" علمنا هذا مشيّد على الكتاب والسنة "

وكلمة الكتاب والسنة تختصر ما يجب أن يقوم عليه التصوف : الكتاب والسنة ، وفيهما كل ما يحتاج إليه المسلم فى دينه .

٢- إسلام الوجه لله - تعالى - :

وإسلام الوجه لله تعالى هو ثمرة الإسلام ، أو هو الإسلام ، فقد سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الإسلام ، فقال :

" أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ".

فإسلام القلب لله ، أو إسلام الوجه لله ، أو التوحيد ... إن كل ذلك يعبر عنه الله - سبحانه - شارحا له بقوله لرسوله - صلى الله عليه وسلم-:

" قُلْ إنَّ صَلاتِى ونُسُكِى وَمَحْيَاىَ وممَاتِى للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، لاشَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلكَ أُمِرْتُ ، وأنا أول المُسْلِمِينَ ." (١)

ومن رسالة الصوفية - إذن - لأنفسهم ، ولغيرهم :

إسلام القلب لله :

يجب على الصوفى أن يبشر فى نفسه وفى غيره بالمعنى الذى تتضمنه الآية الكريمة السابقة ، وهو أيضا المعنى الذى يعبر عنه القرآن الكريم بقوله :

" وَمَنْ أَحْسَنُ دِيْنَاً ممَنْ أَسْلَمَ وَجْهُ لِلَه وَهُو مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبرَاهِيمَ حَنِيْفا " (٢)

وهناك من أسلموا وجههم لله ، وهناك من أسلموا وجههم للشيطان، ومن مهمة الصوفى أن يستنقذ من أسلموا وجههم للشيطان ، ويقودهم إلى الله .

ومن المسائل المهمة فى التأسى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتى تجب على الصوفى قبل أن تجب على غيره :

٣- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

وهو مبدأ من مبادئ الإسلام الكبرى ، جعله الله من أسس خيرية الأمة الإسلامية ، حيث قال :

---

(١) الأنعام (١٦٢ ، ١٦٣)

(٢) النساء (١٢٥)

" كُنتُم خَيرَ أُمَّة أُخرِجَت للنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وتَنهَونَ عَنِ المُنكرِ وتؤمنونَ باللـــــه " (١)

ولقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر طيلة حياته ، وهو الذى يقول فيما رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - :

" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ".

وهو الذى يقول فيما رواه الترمذى عن حذيفة - رضى الله عنه : " والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم ".

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دعوة إلى سبيل الله ، ولابد للصوفى من أن يتبع هذا المبدأ فى نفسه ، وفى أسرته ، وفى مجتمعه ، وإلا لما حقق التأسى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

٤- شعار الرحمــــة :

يقول سبحانه لرسوله الكريم :" وما أرسلنَاكَ إلا رَحمَةَ للعَالمين"(٢)

ويقول - صلوات الله وسلامه عليه - متناسقاً مع القرآن الكريم :

" إنما أنا رحمة مهداة ".

والرحمة من أصول الأخلاق الإسلامية ، وفى الرحمة ما لا يكاد يحصى من النصوص والآثار فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية الشريفة ، وفى سلوك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وفى سير السلف الصالح -رضوان الله عليهم أجمعين- .

ولابد للصوفى من أن يسير على الدرب ، وأن يكون رحمة ينثرها أينما حل ، وحينما كان ، ولا تنزع الرحمة إلا من شقى ، والراحمون يرحمهم الرحمن .

وعلى القائمين على التصوف أن يشعروا شعوراً واضحاً برسالتهم، ويسيروا فى الطريق إذا كانوا حريصين على أن تستمر رسالة التصوف: رسالة الهداية والرحمة ، وإسلام الوجه لله ، وهى رسالة تنفع الفرد والمجتمع والإنسانية . (٣)

---

(١) آل عمران (١١٠)

(٢) الأنبياء (١٠٧)

(٣) د. عبد الحليم محمود : سيدى أحمد الدردير من ص ١٦٥ حتى ص ١٧٠

والإمام الأكبر يدلنا على تجربة أخرى فى حياته أطلق عليها عنواناً معبراً ، وهو " التجربة الكبرى " ، ويقصد بها تجربة الهداية ، يقول عنها : " إن الله – سبحانه وتعالى – يقول فى حديث قدسى : "ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم ".

ويقول – سبحانه – لرسوله الكريم : " إنَّكَ لا تَهْدِى مَن أَحبَبتَ ، ولكِنَّ اللـهَ يَهدِى مَن يَشاء " .

ونحن نمر بأمثال هذا الحديث الشريف ، وهذه الآية القرآنية الكريمة فلا نكاد نعيرهما التفاتا .

وما من شك فى أن الكثير من الناس يسيرون فى الحياة حتى تنتهى بهم ، فلا يثيرهم ، ولا يسترعى انتباههم أمثال هذه النصوص ، ومن الناس من تشد هذه النصوص انتباههم فى قوة لأنهم عاشوا حياة تتصل اتصالا وثيقا بها .

إنهم يقفون طويلاً مرددين مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما رواه الترمذى : عن أم سلمة أنه كان أكثر دعاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا كان عندها : " يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ."

ومعه – صلى الله عليه وسلم – فى قوله فيما رواه الإمام مسلم :

" اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك . "

وكنت أنا أحد الذين اتجهوا إلى الله يضرعون إليه بهذا الدعاء ."[1]

بيد أننا نستطيع رصد خطوات حياته المباركة، واستخلاص نتائج منهجه : علمياً وسلوكياً ؛ لنشترك فى هذه الرؤية مع الدكتور رؤوف شلبى :

لقد انتهى الإمام الأكبر من مدرسته الفكرية إلى أن :

١- القرآن هاد للعقل .

٢- وأن الاتباع هو المطلوب شرعاً .

وأن الابتداع هو المحذور منه شرعاً كذلك .

٣- وأن العمل هو طريق النجاة .

وأن الكلام هو طريق الشقاء .

---

(١) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى ص ١٦٩ ، ١٧٠

فقد هلك المتنطعون .

ووضع – رضى الله عنه – فكرته السلفية فى الاتباع ، فنقل حركة الإصلاح من التخبط وراء :

أ- أدعياء الإصلاح .

ب- ومن تقديس الذوات .

جـ – ومن الجرى وراء مدارس التبشير والاستشراق.

د – و أكد على أن الإسلام كاف فى تنظيم المجتمع ، وبلوغ البشرية به أقصى درجات التحضر .

لكنه – رحمه الله – مثل شيوخه من قبله: مثل الإمام الغزالي

ومثل ابن عطاء الله السكندري. لا يكتفي بالعلم عن العمل ، ولا باليقين عن الوصول إليه ،فتجرد: لقد تجرد من كل هوى وتجرد من كل أذى

وتجرد من كل قبيح . والهوى والأذى والقبيح التي تجرد عنها هي تلك التي يعدها الناس كياسة إن اتبعوها أو حذقوها ، أو نالوا من ورائها خيرا.

إن تجرده يأخذه إلى :

ا-التخلق بأخلاق الله – عز وجل – ، ورسوله الكريم .

ب-والمجاورة لأوامر الله – تبارك وتعالي –.

ج-وترك الانتصار للنفس حياء من الله.

د- وملازمة البساط بصدق البقاء مع الله .

وهذه الأسس تحتاج إلى :

ا-تصفية كاملة للنفس كوسيلة .

ب-وقرب ومشاهدة كغاية .

وذلك فى نظره، بل وفى تجربته يستحق تحقيق أمور منها :

١- الإخلاص :

والمراد به هنا إخلاص الصديقين ، لا إخلاص الصادقين .

٢- التوبة ، فإنها تسد أبواب العذاب :

"وَمَا كَـان اللـه مُعذِّبَهُم وهُم يَستَغفِرُونَ "

٣- النية .

٤- الطريق: القصد إلى الله – تبارك و تعالي – ، وهو أربعة أشياء :

الذكر،وبساطه العمل ، وثمرته : النور.

الفكر، وبساطه الصبر، وثمرته : العلم.

الفقر مما سوى الله إلى الله ، وبساطه الشكر ، وثمرتـه: المزيد منه.

الحب ، وبساطه بغض شهوات الدنيا ، وأهل اللهو والعبث ، وثمرته :الوصل بالمحبوب ، وهو الله – جل جلاله – .

٥- الخلوة ، ودليلها:

" فَلمَّا اعتَزَلهُم ومَا يَعبُدونَ من دُونِ الله وهَبنَا لهُ اسْحَقَ ويَعقُوبَ وكُلا جَعلنا نبيًا ، ووهَبنا لهُم مِن رَحمَتنا ، وجَعلنا لهُم لسَانَ صدقٍ علَيًا" مريم (٤٩،٥٠)

وثمرة الخلوة : كشف الغطاء –ونزول الرحمة – وتحقق المحبة – ولسان الصدق .

٦- الجهاد:

لتصحيح الإيمان، والتوكل علي الله ، والعبودية لجلاله.

وتصحيح الإيمان:يكون بالشكر علي النعماء ، والصبر علي البلاء، والرضا بالقضاء.

وتصحيح التوكل :بتهذيب النفس،ونسيان الخلق كأصحاب قدرة في النفع أو الضر ، والتعلق بالملك الحق ، وملازمة الذكر ، والثبات عند اللقاء.

وتصحيح العبودية : يكون بدوام الفقر للغنى– سبحانه وتعالى– ، ودوام العجز للقدير - جل وعلا –.

٧- العبودية :

وهى امتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، واستعلاء على الشهوات ، وابتعاد عن المحرمات.

٨- الطاعات:

وهى ثمرة العبودية ، فالعبد الذي أكرمه الله بالعبودية يؤدى كل طاعة فى وقتها .وللطاعات ثمرات هي :

العلم الزائد – والنور النافذ– والمحبة السرمدية.

ومن أراد التوفيق إليها فعليه بالمطهّرات في الأقوال والأفعال

،والتبرى من الحول والقوة فى جميع الأحوال. إما المطهّرات فى الأقوال فهي:

سبحان الله ، والحمد لله ، ولا اله إلا الله، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وأما المطهّرات في الأفعال فهي : الصلوات الخمس :

"الذين هم في صلاتهم خاشعون" المؤمنون (٢)

"الذين هم علي صلاتهم دائمون" المعارج(٢٣)

"الذين هم علي صلاتهم يحافظون" المعارج(٣٤)

٩- الذكر : ودليله :

" ياأيها الذين آمنوا أذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة وأصيلا "

الأحزاب (٤١،٤٢)

وفى البخارى من حديث قتادة ، فيما يرويه رسول الله – صلي الله عليه وسلم –عن ربه : "يا ابن آدم إن ذكرتنى في نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منه ، وإن دنوت مني شبرا دنوت منك ذراعا ، وإن دنوت مني ذراعا دنوت منك باعا ، وإن أتيتني تمشى أتيتك هرولة."

١٠- الورع: وهو نعم الطريق .

١١- الزهد:

وهو: فراغ القلب عما سوي الرب – تبارك وتعالي –.

١٢- التوكل:

وهو: نسيان كل شيء سوى الله.

والتوكل لا يكون إلا لتقى ، ولا تتم التقوى إلا لمتوكل .

١٣- الرضا:

وهو أن يلقى الإنسان بنفسه على باب الرضا، وينخلع عن عزائمه وإرادته في

فيرضى بقضاء الله وقدره حلوه ومره.

١٤- المحبة:

وهى خاتمة بساط الكرامة، وهي محبة تشغل المحب عن كل حب غير حبه .

ومن أحب الله وأحب لله فقد تمت ولايته .

ويوم القيامة ينادى الله المتحابين فى جلالة قدسه:

" أين المتحابون فىّ اليوم أظلهم بظلى يوم لا ظل إلا ظلى ."

أخذ الأمام الأكبر- رضى الله عنه وأرضاه- يمارس تجربته ، فأفرغ قلبه لله ، ووجّه مشاعره كلها لرضوانه، ووجّه ماله لأصحاب الحقوق ، ونشر العلم فى كل البقاع ، وفتح باب الحنان لكل مستغيث ، وحقق لكل طالب سؤاله ، وملأ جوف الليل صلاة ،كما ملأ أناء النهار بالعمل الصالح، والعلم النافع .(١)

وبعد:

فإن الإمام الأكبر لو بقى على علوم الكتب فإنه ما كان يزيد على هذا أو ذاك ممن كان فى عهده أو أتى بعده ممن طواهم الزمن دون أن يخلدهم التاريخ، ولكن أساس الخلود في الشيخ عبد الحليم محمود إنما هي هذه الروح التى بثها فى الأتباع والمريدين،والتى ما زال يبثها في أتباعه ومريديه .

إنها الروح الصوفية ،والشعور الصوفى ،والطريقة الصوفية التى مثلها،وما زال يمثلها إلى الآن ، والتى سيستمر يمثلها ما بقيت السماء والأرض:

روح :الإخلاص

روح :إياك نعبد وإياك نستعين

روح :الربانية .

(١) د. رؤوف شلبى : شيخ الإسلام عبد الحليم محمود من ص ٢٤٠ حتى ص ٢٤٦.

خاتمـــــــة

جرى العرف عند الفراغ من البحث أو الدراسة أن يقوم الكاتب باستخلاص نتائج بحثه أو دراسته ثم يقوم بذكرها فى خاتمة عمله ، ولكن الشيخ الإمام خرج على هذا العرف ، إذ أنه فى غالب أعماله كان يستطرد فى خاتمته لها بإيراد معلومات جديدة ، وإضافات مهمة تثرى شخصياته ، وتغنى موضوعاته .

وإن من حق الإمام علينا أن نقتدى به فى هذه الخاصية مثلما اقتدينا به فى صياغة هذا البحث ومعالجة قضاياه ، وما ذلك الاقتداء إلا لونا من ألوان الوفاء له والبر به ؛ ولهذا سنتناول فى خاتمتنا هذة الافكار الآتية :

سمات وقسمات - تأثيره - و فاته - تقديره.

١- سمات وقسمات :

فى السطور الأولى التى كتبها الإمام عن المحاسبى فى صدر شبابه قال : "ومهما يكن من شىء ، فإن عظماء الرجال لا يتركون هذا العالم إلا وقد تركوا أثرا لا ينمحى أبد الدهر .

وقد ينشأ النابغة ، فيجد نفسه فى ميدان المعركة مختارا أو مضطرا ، وتشرع نحوه الاسنة ، وتتجه اليه السيوف المهندة ، فيدافع ويهاجم ، ويغلب أو يُغلب ، ويترك على كل حال أثرًا . "(١)

والأثر الذى تركه الإمام الأكبر على معاصريه ، وعلى تلاميذ ومريد يه ، وعلى أمتنا الإسلامية أثر لا ينمحى ، وسنتعرف على هذا الأمر فى الفقرة القادمة .

أما الآن فإننا نود الإشارة إلى ما تعرفنا عليه من سماته وقسماته التى تحلى بها ، وفى البدايه نضع فى الاعتبار : دلالة الإسم على المسمى، فقد اختار الله تعالى اسمه ، وجمع له فيه بين : العبودية والحلم ، وقد جمع الإمام بينهما : سلوكا وتحققا ، فكان كما نبه العارفون : لكل انسان من اسمه نصيب ، فكان نصيبه من اسمه وافرا ، ومحصوله مباركا.

وسمة أخرى تحلى الإمام بها : التواضع ، " وقد بلغ من تواضعه انكار ذاته ، وعدم الإدلال بمنصبه الذى هو قمة المناصب ، فهو القيادة الروحية للمسلمين ، ومع ذلك كان يعامل الناس كأنه أقلهم ، حدث أن

(١) د. عبد الحليم محمود : الحارث المحاسبى ص ٣

قامت مجموعة من طلاب الأزهر برحلة للحج فى السبعينات بطريقة شاقة توفيرا للنفقات ، إذ آثرت أن تسافر للأراضى المقدسة عن طريق السودان، وأصر الشيخ مرافقتهم ..."

ولاننسى هيئة جلوسه أمام شيخه ، وقد كان عميدا لكلية أصول الدين - القاهرة ، فقد جلس على الأرض على هيئة تدل على حسن خلق، وأدب جم .

كما نتعرف على سمة أخرى هى : الإنصاف ، فرغم اشتداد المعارك تاريخيا : فى بطون الكتب وعلى صفحات المراجع ، وواقعيا : المعارك التى خاضها مع الشيوعين ، وضد الغزو الفكرى ، والعلمانين ، رغم ذلك كان الشيخ فى غاية الانصاف ، لا غاية له سوى الحق ونصرته، لا يتاثر بترغيب ولا ترهيب ، و لا يهتم إلا بهدفه السامى ، وقصده النبيل.

لنقرأ كلامه عن ابن تيميه لنرى إلى أى حد بلغ انصافه مع خصومه فى الفكر ؛ لأننا على علم برأيه فى السلفية : قديما وحديثا ، وقد تعرفنا على رأيه هذا فيما سبق ، يقول الإمام : " ولم يكن ابن تيميه دسيسة على الإسلام ، إنه لم يكن يهوديا اعتنق الإسلام للتضليل بالمسلمين ، وإنما عاش طيلة حياته مناضلا فى اخلاص عما يراه الحق ، ويثيرها شعواء على ما يراه بدعة ، ومجادلا فى غير هوادة ولا لين هؤلاء الذين أداه تفكيره الى انهم انحرفوا عن الجادة .

ولكنه فى رأينا ليس بسلفى فيما يتعلق بالصفات على الخصوص."(١)

وحديثه عن الأشاعرة والمعتزلة يؤكد على إنصافه ، وفى ذلك نقتبس تلك السطور :إن المعتزله والاشاعرة لا يسلم بعضهم - أحيانا - من بلبلة الفكر والشك والحيرة والاضطراب ، وإن محيط ما وراء الطبيعة لأعظم من أن يمخر عبابه سابح ، وأعصف من أن يسلم فيه كل السلامة من خاض غمراته .

ولكن المعتزلة والاشاعرة يهدفون إلى تنزيه الله ، ويسعون سعيا حثيثا إلى مرضاته ، ويجاهدون أعداء الدين جهادا لا هوادة فيه ، ويسهرون الليل ، ويقومون النهار لإعلاء كلمة الله ، وإن الله لا يضيع أجر العاملين ." (٢)

---

(١) د. عبد الحليم محمود : التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ١٠٨

(٢) السابق : نفس الصفحة.

بل إن انصافه بلغ حدا جعله يلتمس العذر لليونانين فى فكرهم الوثني ؛ لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ولم تنزل فيهم رسالة ولم يأتهم رسول

ومن سماته الواضحة : اعتزازه بدينه ، وصدوره عنه ، وإعلانه ذلك فى كل مناسبة ، وفى ذلك يقول : " أريد أن أعلنها صريحة واضحة : أننى أكتب فى هذا الموضوع وأنا مسلم معتز بإسلامى ، وإذا لم يجد أرباب النزعة العلمية الحديثة مقياسا للحكم فسأتخذ أنا الاسلام مقياسا للحكم على الآراء .

والإسلام يوجب عرض الآراء فى دقة ، سواء أكانت مؤيدة له أم معارضة ، وقد ضرب لنا القرآن فى ذلك خير مثال حينما تحدث إلينا عن اعتراضات المشركين على الرساله المحمدية ."(١)

ومن سماته : الكرم ، وقد كانت له أعمال خير سرية لا يعلمها إلا القليل ، وكلها تعمق مجرى مسيرته إلى الله ، ومن بينها أنه كان يعول الكثيرين من طلاب العلم أصحاب المعسرة ، وكثيرا ما بذل من ماله دون أن تصدر منه حتى نظرة منّ ، وقد باع أرضه التى ورثها عن أبيه ليغطى نفقات من ألزم بهم من طلاب العلم.

وقد كانت تسبقه فى كل حركاته وتنقلاته هيبة وروحانية نابعة من قلب امتلأ من هيبة الله، فألقى الله مثلها فى قلوب البشر تجاهه ، ومع ذلك فقد كان الجميع يشعر نحوه بالحب والأخوة والبنوة ، هذا الشعور يصدره الشيخ من فطرة صيغت من الحب والعطف والحنان، وتمخضت فى عطر الخلق الإسلامى الصحيح الرفيع .(٢)

وخلاصة القول حول هذه المسألة تتلخص فى الدعوة الى الله تبارك وتعالى التى كانت "اهتمامه الأول والأكبر، وكانت تستولى على وعيه وعقله الباطن ؛ لذا فقد جعلها محور حياته وسلوكه ، ويقدمها للبشر بأى أسلوب يسره الله له.

فلقد دعا طلابه إلى انتهاج الدعوة بأرقى أساليبها ، واجتهد فى صنع كوادر منهم يحملون لواءها .

وإلى جانب التدريس كتب فى الصحف والمجلات شارحا كلمة الله، يدق بكلماته السهلة على مغاليق القلوب بنور كلام الله وكلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - الذى يسوقه بالمنطق والحجة التى تشرح الصدور المؤمنة فتزيدها إيمانا ، وتدمى القلوب الجاحدة بما يوجه إليها من سهام الحق التى تصيب الباطل فى مقتل،وتكشف زيفه وتزهقه.

---

(١) نفسه : ص ١٠

(٢) أحمد زيادة : الإمام عبد الحليم محمود آ خر العلماء الأولياء ص ٢٤

وقد كانت له ضد طاغوت الإلحاد صولات وجولات كان له فيها الغلبة بما آتاه الله من قوة الإيمان ، وسلامة البيان ، وأمانة النقل ، ورجاحة العقل." (١)

بالإضافة إلى ذلك كانت أحاديثه فى الإذاعة ذات سلطان يأسر القلوب؛ لأنه كان يقصد التبليغ وإيصال كلمة الله- تعالى - لكل ذى لب وعقل ،وكان له حضوره فى الندوات والمحافل والمحاضرات ، ومجال الإفتاء ببيان حكم الشرع فيما يشكل على المسلمين ، وقد ترك فى كل هاتيك المجالات ميراثا خالدا ، ضاعف الله أجره وجعله فى ميزان حساناته.

٢- تأثيره :

ينتصب منهج الإمام - رحمه الله - ليشكل مدرسة قائمة بذاتها فى العلم والسلوك، وقد كان له تأثيره فى عصره وحتى الآن ،وسيبقى مستقبلا ببركة صدق لهجته واخلاص سريرته .

ولم يكن تأثيره قاصرا على الدائرة المحلية - وطنه الأول مصر- ، بل انطلق إلى أرجاء العالم الفسيح : عربيا وعالميا.

وكانت أسفاره خير شاهد على ذلك ، فقد سافر الإمام إلى بعض البلاد العربية، ومنها : تونس ، ليبيا ، السودان ، العراق ، الإمارات العربية المتحدة ، المملكة العربية السعودية .

كما سافر إلى الدول الإسلامية مثل : اندونسيا ، باكستان ، ماليزيا .

وإلى بلاد غير إسلامية ، ولكن بها جامعات تهتم بالدراسات الإسلامية ، مثل: الفلبين ، أوبها جاليات مصرية كالهند ، والولايات المتحدة الأمريكية .

وكان الإمام الأكبر" يسافر تأدية لرسالة ، وكانت أسفاره كثيرة لأن رسالته كانت واسعة ، فهى رسالة الدعوة الإسلامية : الدعوة العالمية للأبيض والأحمر والأسود.

وهو بقية الخلافة الإسلامية يشعر بالواجب المقدس على عاتقه يدفعه ليبلغ الناس ما نزل إليهم من ربهم على أساس :

وجوب التبليغ

والتكليف بقدر الطاقة .

---

(١) أحمد زيادة : الإمام عبد الحليم محمود آخر العلماء الأولياء ص ٢٤

كان يسافر ليبلغ ، وكان يحل المشكلات بقدر ما تسعفه الميزانية ، أو بقدر ما كان يتصرف حسب جهوده المباركة." (١)

أما عن نتيجة أسفاره وتأثيرها فإننا نستأنس بهذه السطور التى كتبها الأستاذ أحمد زيادة ، وفيها يقول : " ذهب إلى إندونسيا ، وقاوم التبشير، ورد موجاته ، ونبه إلى خطره الذى يتهدد ذلك البلد المسلم ، ودعا الشعوب والحكومات الإسلامية إلى تدارك ذلك الخطر ، ورد غوائله، وأعاد إلى الإسلام آلافا مؤلفة .

وسمع عن حرب الإبادة التى يتعرض لها المسلمون فى الفلبين، فسافر إليها،والتقى بالمسلمين ، واستنهض همم المسلمين - فى كل مكان - لإنقاذ إخوانهم ، فانهالت التبرعات والمساعدات .

وفى ماليزيا أسلم على يده الآلاف ، وزادت مساحة النور على أرضها ، وتتلمذ على يديه علماؤها ، وقبس طلاب الجامعة هناك من أنواره ، ونهلوا من علمه ، وترك منهجا تعليميا هناك يثرى الدعوة الاسلامية ، ويصنع دعاة مخلصين.

وباكستان كان لها نصيب من علمه وأنواره ، فقد عمل بها أستاذا زائراً ، واشترك مع القائمين على التعليم فى وضع مناهج تدريس للدين الإسلامى، وتربية الطلاب على العلم والعمل ، والدعوة إلى الله .

وقد كان للبلاد العربية نصيب وافر من جهد الشيخ وعلمه . " (٢)

ظل الإمام مجاهدا ،ولم يلق سلاحه أبدا حتى نهاية عمره: محليا وعالميا، وقد قام بالربط بين منهجه فى الاتباع وبين مقاومة الغزو الفكرى ،حيث ذكر ذلك فى سياق إيراد خلاصة تجربته فى آخر صفحات سيرته الذاتية ،وفى ذلك يقول :" ... وانتهيت من دراستى وأنا أشعر شعورا واضحا بمنهج المسلم فى الحياة ، فهو منهج " الاتباع " ، وبعد أن وقر هذا المنهج فى شعورى ، واستيقنته نفسى أخذت أدعو إليه : كاتبا ، ومحاضرا، ومدرسا ، ثم أخرجت فيه كتابا خاصا هو كتاب : "التوحيد الخالص. أوالإسلام والعقل".

وما فرحت بظهور كتاب من كتبى مثل فرحى يوم ظهر هذا الكتاب ؛ لأنه هو خلاصة تجربتى فى حياتى الفكرية.

وكل ما كتبته عن التصوف ،وعن الشخصيات الصوفية فإنما يسير فى فلك هذا المنهج.

---

(١) أحمد زيادة : الإمام عبد الحليم محمود آخر العلماء الأولياء ص ١٩

(٢) أحمد زيادة : الإمام عبد الحليم محمود آخر العلماء الأولياء ص ١٩

وهذا المنهج يفترض :مقاومة الغزو الفكرى :

والغزو الفكرى له مجالات مختلفه :

١- هناك الغزو الفكرى فى العقائد ، يتمثل فى كل هذا التراث الضخم الذى نقل إلى اللغة العربية فيما يتعلق بما وراء الطبيعة ، وهو تراث مختلف متعارض ، بل متناقض ، وهو نتاج بشرى ، يتسم بكل ما يتسم به النتاج البشرى من خطأ وضلال .

٢- والغزو الفكرى فى نظام المجتمع : الذى يحاول أن يفرض علينا نظام المجتمعات الغربية!

وإذا نحن سرنا فى تياره فإننا نصبح ولا شخصية لنا ولا ذاتية ونصبح وقد فقدنا رسالتنا التى كلفنا بتبليغها للناس ونشرها ،وهى رسالة الإسلام التى من أجلها كانت الأمة الإسلامية ، وبدونها تصبح الأمة الإسلامية لا مبرر لها .

٣- والغزو الفكرى فى مجال التشريع .[١]

٣- وفاته :-

بعد رحلة مباركة فى العلم والدعوة والسلوك استرد الله - تعالى - وديعته ؛ ليعود المحب للرحاب التى اشتاق إليها ، وحنت لها روحه فى جوار ربه فى يوم ١٩٧٨/١٠/١٧، وكانت آخر كلماته " لا اله إلا الله ، الله حق " .

وما إن سرى النبأ حتى زلزلت الأرض زلزالها ، وارتج العالم الاسلامى من أقصاه لأقصاه ، وقد تم نقل جثمانه الطاهر إلى بلدته " قرية السلام " مركز بلبيس محافظة الشرقية التى أنشأ بها - على نفقته - مسجدا ومعهدا دينيا ، حيث تم دفنه هناك .

وقد اهتم العالم أجمع بهذه الفاجعة التى حلت بالمسلمين ، بل وبغير المسلمين ؛ إذ كان الإمام الشيخ متفتحا مستنيرا يقدم سماحة الإسلام لغير المسلمين ، ويمد لهم الحب والسلام ، وكان ذا وزن ومكانة فى جميع أوساط العالم : الدينية والعلمية والثقافية والسياسية .[٢]

---

(١) د. عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى ص ١٧٨ ، ١٧٩

(٢) احمد زيادة :الإمام عبدالحليم محمود آخر العلماء الأولياء ص١٤٩

٤- تقديره : -

لم يحصل أحد من علماء العصر الحديث على ما حصل عليه الإمام الأكبر من اجماع العامة والخاصة على ريادته وأستاذيته : أزهريا ومصريا وعربيا وإسلاميا ودوليا .

كان ذلك فى حياته وبعد وفاته ، ونكتفى الآن بنماذج مما كتب حوله ، ومن ذلك ما صدر عن الرئيس محمد أنور السادات فى برقية عزائه : " إن مصر والعالم الإسلامى فقدا بوفاة الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر عالما جليلا عاش حياة حافلة عنوانها :

الفضل والمجد والفخار .

لقد عرف العالم الإسلامى فقيدنا الراحل ومكانته ومنزلته ؛ إذ استطاع بنافع علمه وكثير منجزاته أن يربط بين حاضرنا وماضينا داعيا وموجها إلى لغة الحب والعدل والتسامح والعمل الصالح وقراءة صحف السالفين من عظمائنا لنسلك مسلكهم ونعمل عملهم.

وإنى إذ أعتز بما أدى من أمانة وبما حمل من رسالة وما قدم من علم وجاهد فى سبيل رفعة وطنه وأمته العربية والإسلامية لأدعو الله العلى القدير أن يسكن فقيدنا الراحل فسيح جناته ، وأن ينزله منازل الصديقين والشهداء ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .[١]

كتبت مجلة الاعتصام مقالاً تحت عنوان " مات الإمام الأكبر فاهتز العالم الإسلامى كله حزنا عليه " ، ومما جاء فيه :

" .. فالدكتور عبد الحليم محمود كان طرازاً فريداً من شيوخ الأزهر فى العقود القديمة والحديثة .. كان صاحب مدرسة فريدة فى العلم وفى الخلق وفى الزهد وفى الجهاد وفى التجرد لله ."[٢]

وقد قال الدكتور عبد الجليل شلبى تحت عنوان " ليس المنصب الذى خلا بل خلت الحياة من قدوة كانت تحتذى " ، فكان مما قاله : " .. ولكنه خص التصوف بمزيد من عنايته ؛ لأن التصوف هو خلقه وطريقه فى الحياة ، والعفة عن المال ، فإن الشيخ عاش ومات لم يقتن ضيعة ولم ينشئ عمارة ، ولم يشارك فى تجارة ، ولقد كان فى كتبه وأحاديثه الإذاعية ما يكفى لأن يعمل لنفسه أكثر مما عمل الآخرون ، ولكنه عمل لآخرته مالم يعملوا ولا يستطيعون.

---

(١) جريدة الأهرام ١٩٧٨/١٠/١٨

(٢) دكتور رؤوف شلبى : شيخ الإسلام عبدالحليم محمود ص ٦٢٩

والذين اتصلوا به عن قرب ليعرفون مدى ما كان ينفق فى سبيل البر ، وما كان يبذل من إحسان ، وهناك قوائم تضم أسماء أسر تيتمت بموت الشيخ ، وأيتام هددت حياتهم، وطلاب فى المدارس والجامعات ، وعاجزين عن الكسب يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، والله وحده يتولى هؤلاء جميعا ." (١)

كم كتب الأستاذ خالد محمد خالد تحت عنوان " كان للمتقين إماماً "، ومن ذلك قوله :

" .. كان كالأنفاس الطاهرة الهادئة ، والنسمات الوادعة فى صمته وصوته وجميع سمته .

كان عظيم الصدق فى اختيار طريقه ، وفى السير على هذا الطريق غير ملق باله لنقد الناقدين، ولوم اللائمين .

لم تكن له شخصيتان .. بل شخصية واحدة اتسقت اتساقاً باهراً مع نور الشريعة والحقيقة معا .

وكان يذكر كلما ذكر الإخلاص والطهر والتقى .

ذلكم هو الإمام الأكبر " عبد الحليم محمود "

عاش حياته متبتلاً مخبتاً أواباً ، وكان يحمل كل خصائص العلماء الذين كتب لهم أن يكونوا للناس قدوة وأئمة وروادا ." (٢)

وبعد ..

رحم الله الإمام الأكبر رحمة واسعة ورضى عنه وأرضاه ونفعنا به . آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) السابق : ص ٦٢٣

(٢) أحمد زيادة : الإمام عبد الحليم محمود آخر العلماء الأولياء ص ١٥٥.

مراجع البحث

-أحمد زيادة: الإمام عبد الحليم محمود آخر العلماء الأولياء - نشر دار الأمين /القاهرة ١٩٩٨

-د.رؤوف شلبى :شيخ الإسلام عبد الحليم محمود - نشر دار القلم/ الكويت ١٩٨٢

-د.عبد الحليم محمود:

-الفلسفة- رسالة منشورة في مجلة البحوث الإسلامية /الرياض ١٤٠٠ هـ

-أبو البركات سيدى أحمد الدردير- نشر دار الكتب الحديثة /القاهرة ١٩٧٤

-أستاذ السائرين الحارث المحاسبى - نشر دار الكتب الحديثة/ القاهرة ١٩٧٣

-الحمد لله هذه حياتى-نشر دار المعارف/ القاهرة ١٩٨٩

-أوروبا والإسلام - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية /القاهرة١٩٧٣

-القطب الشهيد عبد السلام بن بشيش - نشر دار المعارف/ القاهرة١٩٩٦

-أبومدين الغوث حياته ومعراجه إلى الله - نشر الدار المصرية/ القاهرة ١٩٧٦

-عبد الله بن المبارك - نشر دار المعارف/ القاهرة١٩٩٥

-إبرهيم بن أدهم - نشر دار المعارف/ القاهرة ١٩٩٢

-أبو يزيد البسطامى - نشر دار التراث العربى /القاهرة ١٩٧٦

-شمس الدين الحفنى - نشر دار المعارف/ القاهرة ١٩٩٦

-أبو بكر الشبلى - نشر الدار المصرية/ القاهرة ١٩٧٨

-قضية التصوف.المدرسة الشاذلية- نشر دار المعارف/ القاهرة ١٩٨٣

-أبو الحسن الشاذلى - نشر دار الإسلام /القاهرة ١٩٧٣

-سهل بن عبد الله التسترى - نشرالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية/القاهرة١٩٧٨

-بشر الحافى - نشـــر دار الشعـــب/ القاهرة ١٩٧٤

-الفضيل بن عياض -نشـــر دار الشعـــب/ القاهرة ١٩٧١

-السيد أحمد البدوى - نشـر دار المعـــارف/ القاهرة ١٩٩٣

-التفكير الفلسفى فى الإسلام- نشـر مكتبـة الانجلـو/القاهـرة ١٩٦٤

-أوراق خاصة- (نشرها الدكتورروف شلبى في كتابه شـيخ الإسلام)

-مقدمة تحقيق كتاب الرعاية لحقوق الله للمحاسبى- نشـر دار المعارف / القاهرة ١٩٨٤

-مقدمـة تحقيـق كتـاب الصـدق لأبـى سـعيد الخـراز - نشر دار الإنسان/ القاهرة ١٩٧٢

-ابن عبّاد(محمد بن إبراهيم النفرى الرندى):

-غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية

تحقيق د.عبد الحلـيم محمـود ود.محمـود بـن الشـريف - نشر دار الكتب الحديثة/القاهرة١٩٧٠

-ابن عطاء الله السكندرى :

-لطائف المنن تحقيق د. عبد الحليم محمود- مطبعة حسّان /القاهرة١٩٧٤

د.محمد صلاح عبده:-جهود أبى عبد الرحمن السلمى ومنهجه فى التصوف- رسالة دكتوراه١٩٩١كلية أصول الدين /القاهرة

-موقف الصوفية من التكاليف الشرعية - مقال بحولية كلية أصول الدين /القاهرة ١٩٩٦